الموسوعة الندية في الآداب الإسلامية (4)

الآداب عند نزول الابتلاء

الشيخ ندا أبو أحمد

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الموسوعة الندية في الآداب الأسلامية

( )

الآداب عن نزول الابتلاء

الشيخ/ندا أبو أحمد

الآداب عند نزول الابتلاء

تمهيد

إنَّ الحمدَ لله نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، مَن يهد اللهُ فلا مضل له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٢)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء: ١)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٧٠، ٧١)

أما بعد....

فإن أصدق الحديث كتاب الله -تعالى-، وخير الهدي، هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

نبض الرسالة

الآداب عند نزول الابتلاء

تعريف البلاء:

الحكمة من البلاء:

من هم أهل البلاء الحقيقي؟

مشاهد من الابتلاء:

الآداب التي يتحلى بها من نزل به بلاء أو مصيبة:

الأدب الأول: التحلي بالصبر عند نزول المصيبة.

الأدب الثاني: الاحتساب عند نزول المصيبة، والرضا والاسترجاع.

الأدب الثالث: اجتناب كل ما يخالف الشرع.

الأدب الرابع: عدم الشكوى إلى المخلوقين.

الأدب الخامس: الاستعانة بالله عند نزول المصيبة.

الأدب السادس: تذكر موت النبي ﷺ؛ وعندها يستصغر الإنسان أي مصيبة يصاب بها.

الأدب السابع: أن يعلم أن القدر جرى بها، وأنها مقدرة في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق الله الخلق، فلا بد منها.

الأدب الثامن: أن يعلم أن الله قد ارتضاها له واختارها وقسمها، وأن العبودية تقتضي رضاه بما رضي له به سيده ومولاه.

الأدب التاسع: ألا يتسخط عند نزول المصيبة، وليعلم أن الله أراد به الخير.

الأدب العاشر: أن يتهم نفسه ويعلم أن هذا البلاء بما كسبت يداه، وأنه أُوتيَ مِنْ قِبَلِ نفسه.

الأدب الحادي عشر: أن يتذكر أن نعم الله عليه كثيرة، فإذا أخذ فكم أعطى، وإذا ابتلى فكم عافى.

الأدب الثاني عشر: تذكر الموت وسرعة الانتقال عن هذه الدار، فالموت ما ذُكِرَ في شدة وضيق إلا وسعه، ولا ذُكِر في سعة إلا ضيقها.

الأدب الثالث عشر: أن يعلم المبتلى أن البلاء قد يكون أكبر من هذا، لكن الله خفف عنه فابتلاه بما هو عليه الآن، فيحمله هذا على الحمد والرضا.

الأدب الرابع عشر: أن يعلم المبتلى أن مصيبته مهما عظمت فهي هينة يسيرة طالما أنها ليست في الدين.

الأدب الخامس عشر: الاستعانة بالصلاة عند حلول المصيبة.

الأدب السادس عشر: أن يعلم يقينًا أن هذا البلاء سيعقبه فرج قريب، وأن مع العسر يسرا.

الأدب السابع عشر: أن يعلم أن الله سيكافئه في الدنيا بأفضل مما فقد؛ إذا صبر واحتسب.

الأدب الثامن عشر: التأسي بأهل المصائب.

الأدب التاسع عشر: الوقوف على حِكم وفوائد الابتلاء:

الأدب العشرون: الدعاء لكشف الهموم والغموم:

جملة من الأدعية جعلها الله سببًا في كشف الهموم والغموم نذكرها لأهميتها ولإتمام الفائدة.

حقائق عن الابتلاء يجب الوقوف عليها

الحقيقة الأولى: أن المؤمن في الدنيا دائما في بلاء إلى أن يلقى الله-عز وجل-.

الحقيقة الثانية: أن الإنسان في هذه الحياة الدنيا مسافر والسفر كله مشقة.

الحقيقة الثالثة: أن الدنيا دار ابتلاء واختبار.

الحقيقة الرابعة: يخبرنا عنها ابن القيم كما في عدة الصابرين ص: ٩٠. (ذُكرت في ثنايا الرسالة)

الحقيقة الخامسة: فليعلم أهل البلاء أن الراحة الحقيقية والنعيم المقيم ليس في هذه الدار إنما هو في جنة العزيز الغفار.

الآداب عند نزول الابتلاء

مقدمة:

إلى كل مَنْ أُبْتُلِي ببلاء في جسده أو في ماله أو في ولده، إلى من أصابته الكربة بفقد الأحبة، إلى كل محزون ومكروب، إلى كل مريض أو فقير معدوم، إلى كل مهموم ومغموم.

أيها المبتلى.... أهدي إليك هذه الرسالة والتي أذكر فيها الآداب التي ينبغي أن تتحلى بها عند نزول الكرب، لأمسح بها دمعك، وأخفف بها عنك حزنك وهمك، فهي بمثابة التسلية والعزاء لكل محزون مصاب، تشرح صدره وتجلب صبره، وتهون خطبه وتخفف أمره، ويلحظ بها ثوابه على الصبر وأجره.

وقبل أن أشرع في الموضوع هناك بعض الأمور ينبغي أن نقف عليها؛ كتعريف البلاء، والحكمة منه، وأنواع الابتلاء، ومن هم أهل الابتلاء الحقيقي؟ ثم مشاهد من الابتلاء.

أسأل الله أن يجعلها سببًا لرفع الهموم والغموم عن كل محزون أو مكروب..... **اللهم آمين**.

أولًا: تعريف البلاء:

البلية والبلوى والبلاء كلها واحد، والجمع: البلايا، **وبلاه الله**: أي: جرّبه واختبره.

والبلاء يكون تارة بالخير، وتارة بالشر.

قال القرطبي –رحمه الله– في "الجامع لأحكام القرآن: ١/٣٨٧": قال أبو الهيثم: البلاء يكون حسنًا، ويكون سيئًا، وأصله المحنة، والله ﷻ يبلو عبده بالصنيع الجميل ليمتحن شكره، ويبلوه بالبلوى التي يكرهها ليمتحن صبره، فقيل للحسن بلاء، وللسيئ بلاء. اهـ (حكاه الهروي)

وعلى هذا فالابتلاء يكون تارة بالخير وتارة بالشر كما قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الأعراف: ١٦٨) أي: اختبرناهم بالرخاء والشدة والرغبة والرهبة وبالعافية وبالمرض.

قال ابن كثير –رحمه الله– في تفسير هذه الآية: أي: اختبرناهم بالرخاء والشدة، والرغبة والرهبة، والعافية والبلاء. اهـ

وجاء في كتاب الشكر لابن أبي الدنيا ص:١٣٢، وعدة الصابرين لابن القيم ص:١٦١ عن عبد الملك ابن أبجر–رحمه الله–: "ما من الناس إلا ومبتلى بعافية لينظر كيف شكره، أو بلية لينظر كيف صبره.

قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ (الأنبياء: ٣٥).

فالله ﷻ يبتلي عبده بالنعمة والصنع الجميل ليمتحن شكره، ويبتليه بالبلوى التي يكرهها من مرض، أو محنة، أو عاهة، أو هم، أو غم، أو نقمة؛ وذلك ليمتحن صبره.

وقد جاء في" تفسير ابن جرير الطبري:١٧/٢٥" عن ابن عباس-رضي الله عنهما- أنه قرأ الآية السابقة؛ فقال: " نبتليكم بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام والطاعة والمعصية، والهدى والضلالة ".

- **والمؤمن إذا ابتلي بالنعمة فشكر، أو ابتلي بالنقمة فصبر، فهو على خير كبير.**

فقد أخرج الإمام مسلم من حديث صهيب بن سنان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له ".

يقول ابن كثير-رحمه الله- في" تفسيره:٤/٥٤٤" عند قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ (الفجر:١٥-١٧)

يقول الله تعالى منكرًا على الإنسان في اعتقاده إذا وسَّع الله تعالى عليه في الرزق ليختبره في ذلك، فيعتقد أن ذلك إكرام له من الله وليس كذلك، بل هو ابتلاء وامتحان، **كما قال تعالى:** ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ (المؤمنون:٥٥،٥٦) وكذلك في الجانب الآخر، إذا ابتلاه وامتحنه وضيق عليه في الرزق، يعتقد أن ذلك من الله إهانة له، **قال الله تعالى:** (كَلَّا) أي ليس الأمر كما زعم، لا في هذا ولا في هذا، فإن الله تعالى يعطي المال من يحب ومن لا يحب، وإنما المدارُ في ذلك على طاعة الله في كل من الحالين، إذا كان غنيًا بأن يشكر الله على ذلك، وإذا كان فقيرًا بأن يصبر. اهـ.

الحكمة من البلاء

والحكمة من البلاء تظهر في قوله تعالى: ﴿الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (العنكبوت:١-٣).

قال أحد السلف: الناس ما داموا في عافية فهم مستورون، فإذا نزل بهم بلاء صاروا إلى حقائقهم، فصار المؤمن إلى إيمانه، وصار المنافق إلى نفاقه.

وجاء في كتاب "جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى" للغرناطي:٢/١٣٩": قال بعضهم:" لولا حوادث الأيام لم يعرف صبر الكرام ولا جزع اللئام ".

البلاء أمر حتمي ولابد: فالبلاء سنة كونية من سنن الله ﷻ **قال تعالى:** ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (الإنسان: ٢)

فالواضح وضوح الشمس أن الإنسان في هذه الدار غرض للنوائب ورمية للحوادث، فإن سلم في نفسه (أي: من الموت) أصيب في أعضائه، وإن عوفي في أعضائه امتُحن بفقد أحبائه، وإن قدرت له السلامة من ذلك، فالهرم من ورائه. (جنة الرضا:٣ /٥).

وقد دلت الأدلة على أن المصائب والآلام والأمراض ملازمة للبشر، وأنه لابد لهم منها لتحقيق العبودية لله، **قال تعالى:** ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة ١٥٥ -١٥٧).

والمصيبة تشمل كل ما يسوء المرء.

فقد أخرج ابن أبي شيبة في مصنفه عن عمر ﷺ **أنه انقطع شِسْع نعله فاسترجع**[1]**، وقال كل ما ساءك فهو مصيبة.**

جاء في" النهاية:٢ / ٤٧٢": **والشِسع** هو أحد سيور النعل، وهو الذي يدخل بين الإصبعين.

- **والمرء يبتلى على قدر دينه.**

فالبلاء درجات أشده للأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل من عباد الله الصالحين.

فقد أخرج ابن ماجه والحاكم وصححه ووافقه الذهبي عن أبي سعيد الخدري ﷺ ***قال:*** **دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك، فوضعت يدي عليه فوجدت حره بين يدي، فوق اللحاف. فقلت. يا رسول الله ما أشدها عليك! قال:" إنا كذلك. يُضَعَّفُ لنا البلاء ويُضَعَّفُ لنا الأجر" قلت: يا رسول الله! أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء، قلت: يا رسول الله! ثم من؟ قال: ثم الصالحون. إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد أحدهم إلا العباءة يُحَوِّها ،وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء "**

وأخرج الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه الألباني عن مصعب بن سعد عن أبيه قال:
قلت: يا رسول الله! أي الناس أشد بلاء؟ قال:" الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلي الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صُلْبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلى على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة ".

والسر في ذلك أن البلاء في مقابلة النعمة، فمن كانت نعمة الله عليه أكثر كان بلاؤه أشد، ومن ثم ضُعِّفَ حد الحر على العبد.

وقيل لأمهات المؤمنين: ﴿مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ (الأحزاب:٣٠)

١- فاسترجع: أي أنه قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

قال الشيخ الألباني -رحمه الله- في الصحيحة عقب هذه الأحاديث ما نصه:

وفي هذه الأحاديث دلالة صريحة على أن المؤمن كلما كان أقوى إيمانًا، ازداد ابتلاء وامتحانًا، والعكس بالعكس، ففيها رد على ضعفاء العقول والأحلام الذين يظنون أن المؤمن إذا أصيب ببلاء: كالحبس أو الطرد أو الإقالة من الوظيفة ونحوها أن ذلك دليل على أن المؤمن غير مرضي عند الله تعالى!! وهو ظن باطل فهذا رسول الله ﷺ وهو أفضل البشر، كان أشد الناس حتى الأنبياء بلاء، فالبلاء غالبًا دليل خير، وليس نذير شر. ***كما يدل ذلك أيضًا حديث:*** **" إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط ".** (رواه الترمذي من حديث أنس ﷺ)

وقال الشيخ الألباني أيضًا -رحمه الله-: وهذا الحديث يدل على أمر زائد على ما سبق، وهو أن البلاء إنما يكون خيرًا، وأن صاحبه يكون محبوبًا عند الله تعالى، إذا صبر على بلاء الله تعالى، ورضي بقضاء الله ﷻ.اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله -: فمن ابتلاه الله بالبأساء والضراء والبأس وقدر عليه رزقه[1]، فليس ذلك إهانة له، بل هو ابتلاء وامتحان، فإن أطاع الله في ذلك كان سعيدًا، وإن عصاه في ذلك كان شقيًا، كما كان مثل ذلك سببًا للسعادة في حق الأنبياء والمؤمنين، وكان شقاء وسببًا للشقاء في حق الكفار والفجار. اهـ. (قاعدة في المحبة ص:١٦٧)

يقول ابن القيم -رحمه الله -: إن ابتلاء المؤمن كالدواء له يستخرج منه الأدواء (الأمراض) التي لو بقيت فيه أهلكته أو نقصت ثوابه، وأنزلت درجته فيستخرج الابتلاء والامتحان منه تلك الأدواء، ويستعد به لتمام الأجر وعلو المنزلة، ومعلوم أن وجود هذا خير للمؤمن من عدمه.

كما قال النبي ﷺ: **" والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له ".**

فهذا الابتلاء والامتحان من تمام نصره وعزه وعافيته -سبحانه وتعالى- ولهذا كان أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأقرب إليهم فالأقرب، يبتلى المرء حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة شدد عليه البلاء، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على وجه الأرض وليس عليه خطيئة. اهـ.

ومن هنا نعلم أن قضاء الله تعالى كله خير، وفي قضائه من الحكمة التي تعجز عن إدراكها البشر،

يقول ابن القيم -رحمه الله- كما في شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ص:٤٣٢: ولو ذهبنا نذكر ما يطلع عليه أمثالنا من حكمة الله في خلقه وأمره؛ لزاد ذلك على عشرة آلاف موضع، مع قصور أذهاننا، ونقص عقولنا ومعارفنا، وتلاشيها وتلاشي علوم الخلائق جميعهم في علم الله كتلاشي ضوء السراج في عين الشمس. وهذا تقريب وإلا فالأمر فوق ذلك. اهـ.

١ـ قدر عليه رزقه: أي ضيق عليه رزقه.

تنبيه:

الله تعالى يعطي الأجر والثواب على قدر إيمان العبد وشدة بلائه، فكلما كان البلاء أشد؛ كان الأجر أعظم. ***وذلك للحديث الذي أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:***

" إن عظم الجزاء مع عظم البلاء.... ". الحديث

ويدل على هذا أيضًا ما أخرجه البخاري من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أنه دخل على النبي ﷺ فقال: **يا رسول الله، إنك توعَكُ وعْكًا شديدًا: فقال:" أجل إني أوعَك كما يوعكُ رجلان منكم". قلت: ذلك بأن لك أجرين. قال:" أجل: ذلك كذلك، ما من مسلم يصيبه أذى – شوكة فما فوقها – إلا كفر الله بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها ".**

من هم أهل البلاء الحقيقي؟

يقول ابن القيم كما في عدة الصابرين ص: ٨١:

فإن البلاء في الحقيقة ليس إلا الذنوب وعواقبها، والعافية المطلقة هي الطاعات وعواقبها، فأهل البلاء هم أهل المعصية وإن عفيت أبدانهم، وأهل العافية هم أهل الطاعة وإن مرضت أبدانهم. فإن أهل البلاء المبتلون بمعاصي الله والإعراض والغفلة عنه وهذا من أعظم البلاء. اهـ بتصرف.

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء
إنما الميت من يعيش كئيبا كاسفًا باله قليل الرجاء

مشاهد من الابتلاء

رحم الله ابن القيم حيث ذكر في كتابه الفوائد: إنه إذا جرى على العبد قدر يكرهه فإن له فيه ستة مشاهد يمكن إيجازها فيما يأتي:

١- مشهد التوحيد:

وجملته أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وإن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأنه بقدر الله، وما شاء الله فعل.

٢- مشهد العبودية:

وخلاصته أنك عبد لله تجري عليك أحكام سيدك ومولاك، ولا تملك إلا السمع والطاعة والخضوع والإنابة والاستسلام والإذعان والانقياد لله رب العالمين.

٣- مشهد الحكمة:

وغايته أن الله ﷻ أحكم الحاكمين، وكل شيء عنده بحكمة بالغة، وأنت قد تجهل الحكمة من وراء ذلك، وقد تغفل عن الخير واليسر الذي يأتي قبله وبعده ولله در من قال: "**أن لله عطايا في صورة بلايا** " وقد يبتلي الله ﷻ العبد الصالح ببلاء ثم ابتلاء ثم مصيبة ثم يخرجه من ذلك كله على أوسع ما في الدنيا من مال وسلطان وعز وجاه، فيكون قد نال من حكمة البلاء من التدريب والرضا، والتعلق بالله ﷻ والدار الآخرة واحتقار الدنيا وما فيها مما يجعله في حماية من أن تفتنه الدنيا عندما تأتيه.

ومثال ذلك: نبي الله يوسف –عليه السلام– ابتلاه الله بكراهية إخوته له، ثم إلقاؤه في البئر، ثم يباع في السوق، ثم يعمل في بيت عزيز مصر، ثم محنة امرأة العزيز، والنسوة اللاتي قطعن أيديهن، ثم يخرج من السجن فيولى خزائن الأرض يتصرف فيها كيف يشاء بأمر الله ﷻ.

قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(يوسف: ٥٦)

٤- مشهد الرحمة:

وفحواه أن الله ﷻ أرحم بنا من رحمة الأم بولدها فهو – سبحانه وتعالى – أرحم الراحمين

قال تعالى: ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (فاطر:٢)

ومن رحمته أن البلاء جاءك في هذا الوقت بالذات، وأتى كما كان ولم يكن أشد مما كان، وأنه لم يكن في دينك، فكل مصيبة تهون عدا المصيبة في الدين التي تؤدي إلى جهنم وبئس المصير.

٥- مشهد الصبر:

ومضمونه أن الله ﷻ ابتلانا ليرى مدى صبرنا، وليميز الصادق من الكاذب، والمخلص من المنافق، والطيب من الخبيث **قال تعالى:** ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾ (آل عمران: ١٧٩)

٦- مشهد الرضا:

وجملته أن قدر الله ﷻ يجري على عباده، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فعليه السخط، وأن الصبر مع الرضا، والصبر مع الشكر والحمد أعلى مراتب الصبر، وهو الصبر المأجور بغير حساب. فإذا ابتلي العبد المؤمن اقتضى إيمانه أن يريد ما أراد الله تعالى، ويرضى بما يقدر، إذ لو لم يكن كذلك كان خارجًا عن حقيقة العبودية.

الآداب التي يتحلى بها من نزل به بلاء أو مصيبة:

هناك أمور وآداب تُهَوِّن على المُبتلى، وترفع عنه الآلام والأحزان، وتجعله في رضا تام، ومن هذه الأمور والآداب:

الأدب الأول: التحلي بالصبر عند نزول المصيبة:

والصبر هو: حَبْسُ النَّفْسِ عَنِ الْجَزَعِ وَالتَّسَخُّطِ، وَحَبْسُ اللِّسَانِ عَنِ الشَّكْوَى، وَحَبْسُ الْجَوَارِحِ عَنِ التَّشْوِيشِ والمعصية؛ كلطم الخدود، أو شق الجيوب، **وقيل الصبر هو:** الوقوف مع البلاء بحسن الأدب.

يقول ابن القيم-رحمه الله- في كتابه" عدة الصابرين ص: ١٠ مبينًا أهمية الصبر":

فإن اللَّه سبحانه جعل الصبر جوادًا لا يكبو[١]، وصارما لا ينبو[٢]، وجندًا غالبًا لا يهزم، وحصنًا حصينًا لا يهدم، فهو والنصر أخوان شقيقان. فـ " **النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، واليسر مع العسر**[٣]"، وهو أنصر لصاحبه من الرجال، بلا عدّة ولا عدد، ومحله من الظفر كمحل الرأس من الجسد، فالصبر آخيّة المؤمن[٤] التي يجول ثم يرجع إليها، وساقُ إيمانه التي لا اعتماد له إلا عليها، فلا إيمان لمن لا صبر له، وإن كان فإيمانٌ قليلٌ في غاية الضعف، وصاحبه ممن ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ**﴾ (سورة الحج:١١)، ولم يحظَ منهما إلا بالصفقة الخاسرة، فخير عيشٍ أدركه السعداءُ بصبرهم، وترقوا إلى أعلى المنازل بشكرهم، فساروا بين جناحي الصبر والشكر إلى جنات النعيم، وذلك فضل اللَّه يؤتيه من يشاء، واللَّه ذو الفضل العظيم ".

اهـ باختصار.

فهنيئًا لأهل البلاء إذا صبروا واحتسبوا: فالصبر هو عبودية الضراء، وهو واجب باتفاق.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: " الصبر على المصائب واجب باتفاق أئمة الدين ".

(تسلية أهل المصائب ص: ١٧٣)

وقال ابن القيم -رحمه الله-: والصبر واجب بإجماع الأمة، وهو نصف الإيمان، فإن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر. والصبر يتحقق بثلاثة أمور:

١- حبس النفس عن الجزع.

٢- حبس اللسان عن الشكوى للخلق.

٣- حبس الجوارح عن فعل ما ينافي الصبر. **(عدة الصابرين ص:١٣) (مدارج السالكين:١٥٦/٢)**

١- كبا الجواد يكبو كبوة إذا عثر. انظر (لسان العرب:١٥/ ٢١٣).

٢ - نبا السيف إذا كلّ ولم يقطع. انظر (لسان العرب:١٥/ ٣٠١).

٣ - رواه الإمام أحمد والحاكم في المستدرك والخطيب البغدادي، وصححه الشيخ الألباني في (صحيح الجامع:٦٨٠٦).

٤ - الآخيّة بالمد والتشديد: عود أو حبل يعرض في الحائط ويدفن طرفاه فيه، ويصير وسطه كالعروة تشدّ إليه الدّابّة.

(النهاية لابن الأثير:١/ ٢٩) (لسان العرب: ١٤/ ٢٣).

وقد ذكر الله تعالى الصبر في القرآن في نحو من تسعين موضعًا، وأضاف إليه أكثر الخيرات والدرجات وجعلها ثمرة له.

١- الصبر خير معين على مصائب ومتاعب الحياة الدنيا:

فالله تعالى أرشدنا في كتابه الكريم إذا ضاقت بنا الحياة وحاصرتنا الهموم أن نستعين بالصبر والصلاة، فالصبر والصلاة كلاهما خير ما يستعين به المؤمن على مجابهة ما يتعرض له كل يوم من فتن، ومحن، وبلاء، وهما خير سلاح يدرأ به المسلم عن نفسه ما يصيبها من همٍّ، أو غمٍّ، أو حزن لخير فاته، أو سوء أصابه. **فقال تعالى:** ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (سورة البقرة:٤٥)

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (سورة البقرة:١٥٣)

يقول ابن القيم-رحمه الله-: " فمن لا صبر له؛ لا عون له ".

٢- الله جمع للصابرين ثلاثة أمور لم يجمعها لغيرهم؛ وهي: الصلاة منه عليهم، ورحمته لهم، وهدايته إياهم:

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (سورة البقرة: ١٥٥- ١٥٧)

قال السعدي-رحمه الله- في تفسيره عند هذه الآيات: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ أي: بشرهم بأنهم يوفون أجرهم بغير حساب. فالصابرون، هم الذين فازوا بالبشارة العظيمة، والمنحة الجسيمة، ثم وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ وهي كل ما يؤلم القلب أو البدن أو كليهما مما تقدم ذكره[١]. ﴿قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ﴾ أي: مملوكون لله، مدبرون تحت أمره وتصريفه، فليس لنا من أنفسنا وأموالنا شيء، فإذا ابتلانا بشيء منها، فقد تصرف أرحم الراحمين، بمماليكه وأموالهم، فلا اعتراض عليه، بل من كمال عبودية العبد، علمه، بأن وقوع البلية من المالك الحكيم، الذي هو أرحم بعبده من نفسه، فيوجب له ذلك، الرضا عن الله، والشكر له على تدبيره، لما هو خير لعبده، وإن لم يشعر بذلك، ومع أننا مملوكون لله، فإنا إليه راجعون يوم المعاد، فمجاز كل عامل بعمله، فإن صبرنا واحتسبنا وجدنا أجرنا موفورًا عنده، وإن جزعنا وسخطنا، لم يكن حظنا إلا السخط وفوات الأجر، فكون العبد لله، وراجعًا إليه، من أقوى أسباب الصبر. ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بالصبر المذكور ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: ثناء وتنويه بحالهم ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ عظيمة، ومن رحمته إياهم، أن وفقهم للصبر الذي ينالون به كمال الأجر، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ الذين عرفوا الحق، وهو في هذا الموضع، علمهم بأنهم لله، وأنهم إليه راجعون، وعملوا به وهو هنا صبرهم لله.

وقال بعض السلف وقد عُزِّي على مصيبة نالته، فقال: " مالي لا أصبر، وقد وعدني الله على الصبر ثلاث خصال، كل خصلة منها خير من الدنيا وما عليها[٢] ". (عدة الصابرين ص:٨٥)

١- قال القرطبي- رحمه الله -: والمصيبة: هي كل ما يؤذي المؤمن ويصيبه.
٢- يقصد الآية السابقة.

٣- الصابرون أعد الله لهم مغفرةً وأجراً عظيما:

قال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ...إلى قوله:... أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (سورة الأحزاب:٣٥)

وقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (سورة هود:١١)

٤- الناس في خسران إلا أهل الصبر والإيمان:

قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾

(سورة العصر)

فالذين نجوا من الخسارة، وربحوا رضا الله عز وجل، ودخول جنته، التي أعدها لأوليائه؛ هم أهل الإيمان بالله، الذين سلمت قلوبهم من كل شبهة، وسلمت قلوبهم من كل شهوة، وهم أهل العمل بما يدعو إليه الإيمان، وهم أهل التواصي بالحق والصبر.

٥- الصبر سبيل للفوز بمحبة الله تعالى:

لو لم يكن في الصبر من فضيلة إلا الفوز بمحبة الله تعالى لكفى.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (سورة آل عمران:١٤٦)

ومحبة الله لعبده هي أعظم مكسب يحصل للعبد، فإن العبد إذا كان محبوبًا لله، أقبل عليه الخير من كل جهة، واندفع عنه الشر والأذى، وتحققت له سعادة الدنيا والآخرة.

قال ابن ناصر الدين الدمشقي -رحمه الله -:

سبحان من ابتلى أُناسًا ... أحبهم والبلا عطاءُ

فاصبر لبلوى وكن راضيًا ... فإن هذا هو الدواءُ

سلِّم إلى الله ما قضاه ... ويفعل الله ما يشاءُ

(برد الأكباد عند فقد الأولاد ص:١٢)

٦- الصبر سبيل للفوز بمعية الله تعالى:

قال تعالى: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (سورة الأنفال: ٤٦)

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (سورة البقرة:١٥٣)

قال تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال:٦٦)

وقال أبو علي الدقاق -رحمه الله-: "فاز الصابرون بعز الدارين؛ لأنهم نالوا من الله معيَّته، فإن الله مع الصابرين". (مدارج السالكين:٢/١٦٦)

٧- علق الله تعالى الفلاح والنجاح على الصبر والتقوى:

فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (سورة آل عمران: ٢٠٠)

فالمصابرة والمرابطة على طاعة الله طريق الفلاح في الدنيا والآخرة.

٨- وعد الله الصابرين بأن يجازيهم بأحسن ما كانوا يعملون:

قال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة النحل: ٩٦)

فهذا قسم من الله تعالى مؤكد باللام أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

(انظر تفسير ابن كثير، وتفسير السعدي عند هذه الآية)

٩- كرَّم اللهُ الصبرَ وشرَّفه وذلك بإضافته لنفسه سبحانه:

قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ (سورة النحل:١٢٧)

فأضاف الله تعالى الصبر إلى نفسه بعد الأمر به، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ (المدثر:٧)

وإن كان كل شيء في الوجود لا يقوم إلا به سبحانه، وكل عمل صالح لا يكون إلا له، ولكن التخصيص دليل التكريم والتشريف.

١٠- الصابرون أثنى الله عليهم وزكاهم؛ ووصفهم: بالصدق والتقوى:

قال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (سورة البقرة:١٧٧)

وكذلك أثنى الله تعالى على نبيه أيوب عليه السلام لأنه كان صابرًا، **فقال تعالى:** ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (سورة ص:٤٤) فلما صبر على البلاء أثنى الله عليه وقال: ﴿نِّعْمَ الْعَبْدُ﴾ وهذا يدل على أن من لم يصبر إذا ابتلي؛ فإنه بئس العبد.

١١- وعد الله تعالى أهل الصبر والتقوى بحسن العاقبة:

يحكي القرآن الكريم على لسان موسى ناصحًا قومه، بعد أن هددهم فرعون بالقتل والتعذيب والتنكيل: فقال لهم موسى: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (سورة الأعراف:١٢٨)

١٢- الصابرون يضاعف لهم الأجر والثواب:

قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ (سورة القصص:٥٤)

١٣- أفضل ما يهب الله للإنسان نعمة الصبر:

فقد أخرج الحاكم في المستدرك من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: " **ما رُزِقَ عبدٌ خيرًا له ولا أَوسعَ من الصبرِ**". (صحيح الجامع: ٥٦٢٦) (الصحيحة:٤٤٨)

يقول المناوي-رحمه الله- في" فيض القدير: ٥/٤٤٧" في شرحه لهذا الحديث:

" **وقوله** ﷺ:" **من يتصبر يصبره الله**" فإذا رزق الله العبد الصبر كان أوسع من كل نعمة واسعة؛ لأنه يُسهل بالصبر جميع الخيرات، وترك المنكرات، وتحمل المكروهات المقدرات، والرزق المشار إليه رزق الدين والإيمان ". اهـ

١٤- الصبر ضياء:

فقد أخرج الإمام مسلم عن أبي مالك الأشعري ﷺ أن النبي ﷺ قال: " **الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن- أو تملأ- ما بين السماء والأرض، الصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياءٌ، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها** ".

قال النووي -رحمه الله- في شرحه لهذا الحديث:٣/١٠٣": " المراد أن الصبر محمود، ولا يزال صاحبه مستضيئًا مهتديًا مستمرًا على الصواب ". اهـ.

وقيل: قوله:" **ضياء**" يعني في ظلمة القبر، لأن المؤمن إذا صبر على الطاعات والبلايا في سعة الدنيا، وعن المعاصي فيها جازاه الله بالتفريج والتنوير في ضيق القبر وظلمته.

١٥- السعيد من رزقه الله نعمة الصبر:

فقد أخرج أبو داود عن المقداد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " **إن السعيد لمن جُنِّبَ الفتن، ولمن ابتُلِيَ فصبر** ". (صحيح الجامع:١٦٣٧)

١٦- من رُزق الصبر؛ رزقه الله الرضى وراحة البال:

فقد أخرج البخاري معلقًا في كتاب التفسير عن علقمة -رحمه الله- أنه قال في قوله تعالى: ﴿**وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ**﴾ (التغابن:١١) **قال:" هي المصيبة تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيرضَى ويُسَلِّم** ".

فمن صبر على البلاء والمصيبة انقلبت محنته منحةً عظيمة، واستحالت بليته عطية جسيمة، وصار ما كرهه محبوبًا، وللأجور العظيمة حائزًا مصيبًا. ***ولذلك جاء في وصية النبي ﷺ لابن عباس-رضي الله عنهما- كما عند الإمام أحمد:*** " **واعلم أن في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا** ".

١٧- الصابرون يوفيهم الله أجورهم يوم القيامة بغير حساب:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر: ١٠)

قال الأوزاعي -رحمه الله-: " ليس يوزن لهم ولا يكال، إنما يغرف لهم غرفًا. (تفسير ابن كثير:٧/٩٠)

وقال سليمان بن القاسم-رحمه الله-: " كل عمل يُعرف ثوابه إلا الصبر، **قال تعالى:** (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ) قال: كالماء المنهمر. (عدة الصابرين ص:٨٥)

١٨- الصابرون ليس لهم جزاء إلا الجنة:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (العنكبوت: ٥٨،٥٩)

وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ (آل عمران:١٥-١٧)

وقال تعالى: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ (الإنسان:١٢)

وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ (الفرقان:٧٥،٧٦)

يقول أبو طالب المكي-رحمه الله-: " اعلم أن الصبر سبب لدخول الجنة والنجاة من النار؛ لأنه جاء في الخبر:" حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات ". اهـ.

فيحتاج المؤمن إلى الصبر على المكاره ليدخل الجنة، وإلى صبر عن الشهوات لينجو من النار ".

وأخرج البخاري ومسلم عن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس -رضي الله عنهما-:

" ألا أريك امرأة من أهل الجنّة؟ قلت: بلى. قال: هذه المرأةُ السوداءُ أتت النبي ﷺ فقالت: إنّي أصرعُ وأتكشّف، فادع اللّه لي. قال: "إن شئتِ صبرت ولك الجنة، وإن شئتِ دعوتُ اللّه أن يعافيَك"، قالت: أَصْبر. فقالت: إني أتكشفُ فادعُ اللّه ألا أتكشّف ".

أخرج البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " حُفَّتِ الجَنَّةُ بالمَكارِهِ، وحُفَّتِ النَّارُ بالشَّهَواتِ ". - ***وفي رواية:*** " حُجِبَتِ النَّارُ بالشَّهَواتِ، وحُجِبَتِ الجَنَّةُ بالمَكارِهِ ".

- ***وأخرج البخاري عن أنس ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:*** " إن الله ﷻ قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه [١] فصبر عوضته منهما الجنة ".

١- بحبيبتيه: يريد عينيه.

- ***وأخرج البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: يقولُ اللَّهُ تَعالَى:*** **" ما لِعَبْدِي المُؤْمِنِ عِندِي جَزاءٌ، إذا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِن أهْلِ الدُّنْيا ثُمَّ احْتَسَبَهُ، إلَّا الجَنَّةُ ".**

وفي هذا الحديثِ يُخبِرُ رَسولُ اللهِ ﷺ عن اللهِ عزَّ وجلَّ أنَّه ليس لِلعَبْدِ المؤمنِ عِندَ اللهِ سُبحانَه جَزاءٌ وثَوابٌ وأجرٌ، إذا قبَضَ ونزعَ رُوحَ صَفِيِّه، وهو الحبيبُ المُصافي؛ كالولدِ والأخِ والزوج وكلِّ مَن أحَبَّه الإنسانُ،" **مِن أهلِ الدُّنيا ثمَّ احتسَبَه** "، أي: صبَرَ على ذلك راجيًا الثَّوابَ مِن اللهِ سُبحانَه؛" **إلَّا الجنَّةُ** ".

(انظر فتح الباري:١١/٢٤٢)

وأخرج الترمذي عن أبي سنان قال: دفنت ابني سنانًا وأبو طلحة الخولاني جالس عند شفير القبر، فلما فرغت قال: قال رسول الله ﷺ: **" إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده[1]؟ فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة وسموه بيت الحمد".**

فسبحان من ينعم بالبلاء.

فليعلم المصاب أن ما يعقبه الصبر والاحتساب من اللذة والمسرة أضعاف ما يحصل له ببقاء ما أصيب به لو بقي عليه، ويكفيه في ذلك بيت الحمد الذي يبنى له في الجنة على حمده واسترجاعه على مصيبته فلينظر أي المصيبتين أعظم، مصيبته العاجلة بفوت محبوبه، أو مصيبته بفوات بيت الحمد في جنة الخلد؟

١٩- الصابرون يسكنون الغرف في أعلى درجات الجنة:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ(٥٨)الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (العنكبوت: ٥٨، ٥٩)

اعلم أخي الحبيب... أن الصبر هو الدواء الناجع لكل بلية، وهو الترياق النافع لكل رزية، وهو السلاح الماضي الذي لا ينبو ولا يثلم، وهو الجنة الحصينة التي لا تهدم، ويكفي أن صاحبه يظفر بمعية الله، ولو لم يكن في الصبر من فضيلة إلا الفوز بمحبة الله لكفى بها فضيلة **فقد قال تعالى:** ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾

(آل عمران: ١٤٦)

تنبيه: هناك الكثير والكثير من فضائل الصبر لم أذكرها في هذا الرسالة، لكن ما ذُكر فيه الكفاية، ومن أراد الاستزادة فهناك رسالة للمؤلف بعنوان:" **فضل الصبر**"؛ ضمن سلسلة:" **الكتاب الجامع للفضائل**" فارجع إليها فضلًا لا أمرًا.

١- ثمرة فؤاده: قال ابن الأثير: يقال للولد الثمرة، وذلك لأن الثمرة هي ما تنتجه الشجرة، وكذلك الولد من الرجل ما ينتجه.

الأدب الثاني: الاحتساب عند نزول المصيبة، والرضا والاسترجاع:

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ(١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ(١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾

(البقرة:١٥٥-١٥٧)

الاسترجاع وهو أن يقول: ﴿إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾ ويزيد على ذلك ما أمرنا به النبي ﷺ.

فقد أخرج أبو داود عن أم سلمة -رضي الله عنها- قال رسول الله ﷺ: " إذا أصاب أحدكم مصيبة، فليقل: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، اللهم عندك احتسب مصيبتي فأجرني فيها وأبدلني بها خيرًا منها ".

وأخرج الإمام مسلم عن أم سلمة-رضي الله عنها- قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " ما من مسلم تصيبه مصيبة، فيقول ما أمره به الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرًا منها، إلا أخلف الله له خيرًا منها، قالت: فلما مات أبو سلمة قلت: وأي المسلمين خير من أبي سلمة؟ فهو أول من هاجر إلى رسول الله ﷺ، تقول أم سلمة: ثم إني قلتها؛ فأخلف الله لي بدلًا من أبي سلمة رسول الله ﷺ ".

فعلى أقارب الميت إذا حلت بساحتهم مصيبة الموت أن يقولوا على التو والفور: ﴿إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾ فهذه الآية كالماء البارد الذي ينزل على هذه القلوب المحترقة بلوعة الأسى والفراق فتطفئ لهيبها، فتهدأ النفس، ويرتاح القلب.

وقولهم: ﴿إِنَّا لِلّهِ﴾ إقرار بالعبودية والمُلْك لله، والمَلِكُ له حق التصرف في ملكه كيف يشاء.

وقولهم: ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾ فهذه الآية إقرار بأن هناك موت ثم بعث، فليحذروا من المخالفة، لأنهم على علم بأنهم راجعون إلى ربهم، وسيحاسبهم على الصغير والكبير، والنقير والقطمير، فيحملهم هذا على عدم المخالفة والتسخط، كما يحملهم على الرضا والصبر والاحتساب رجاء المثوبة والرفعة في الدرجات والفوز ببيت الحمد في الجنَّة ***كما جاء في الحديث الذي أخرجه الترمذي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:*** " إذا مات ولد العبد، قال الله تعالى لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرةَ فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: فماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنَّة وسموه بيتَ الحمد ". اهـ (صحيح الجامع:٧٩٥)

وهذا الأجر العظيم يكون لمن صبر عند الصدمة الأولى.

وقد نقل الحافظ في الفتح:٣/١٤٩"عن الخطابي قوله: إن الصبر الذي يحمد عليه صاحبه ما كان عند مفاجأة المصيبة، بخلاف ما بعد ذلك، فإنه على الأيام يسلو". اهـ

فقد أخرج البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال: " مرَّ رسول الله ﷺ بامرأة عند قبر وهي تبكي، فقال لها: اتقي الله واصبري، فقالت: إليك عني، فإنك لم تصب بمصيبتي، قال: ولم تعرفه، فقيل لها: هو رسول الله ﷺ، فأخذها مثل الموت، فقالت: يا رسول الله إني لم أعرفك، فقال رسول الله ﷺ: إنما الصبر عند الصدمة الأولى".

الأدب الثالث: اجتناب كل ما يخالف الشرع:

كالنياحة والندب، وضرب الخدود، وشق الجيوب، والدعاء بدعوى الجاهلية، ونشر الشعر أو حلقه عند نزول المصيبة، فكل هذا من الأمور المحرمة.

- **أما بالنسبة للنياحة والندب:**

فقد أخرج الإمام مسلم من حديث أبي مالك الأشعري أن النبي ﷺ قال: **" أربع من أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم والنياحة ".**

قال النووي –رحمه الله– في شرح هذا الحديث: فيه دليل على تحريم النياحة، وهو مجمع عليه.

وأخرج البخاري ومسلم عن أم عطية – رضي الله عنها – قالت: **" أخذ علينا النبي ﷺ عند البيعة أن لا ننوح، فما وَفَّت منا امرأة غير خمس نسوة..."** الحديث

قال النووي في كتاب الأذكار ص:٣٣٣: " أجمعت الأمة على تحريم النياحة، والدعاء بدعوى الجاهلية، والدعاء بالويل والثبور على المصيبة ". اهـ

- **أما بالنسبة لضروب الخدود، وشق الجيوب، والدعاء بدعوى الجاهلية:**

فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: **" ليس منا من لطم الخدود، وشقَّ الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية ".**

قال الحافظ في الفتح:٣/١٩٥": قال المهلب: قوله: **"ليس منا"** ليس متأسيًا بسنتنا، ولا ممتثلًا لطريقتنا التي نحن عليها، كما قال ﷺ:**" ليس منا من غشنا"** لأن لطم الخدود، وشق الجيوب من أفعال الجاهلية. وقوله:**" لطم الخدود"** خص الخد بذلك؛ لكونه الغالب في ذلك، وإلا فضرب بقية الوجه داخل في ذلك، وقوله:**" وشق الجيوب"** جمع جيب، وهو ما يفتح من الثوب؛ ليدخل فيه الرأس، والمراد بشقه: إكمال فتحه إلى آخره، وهو من علامات التسخط، وقوله:**" ودعا بدعوى الجاهلية"** – **وفي رواية مسلم:** **"بدعوى أهل الجاهلية"** أي: من النياحة ونحوها، وكذا الندبة كقولهم: **"واجبلاه"** ،وكذا الدعاء بالويل والثبور. اهـ

- **أما بالنسبة نشر الشعر:** وهو نفشه ونشره وتفريقه عند المصيبة، وهو محرم.

فقد أخرج أبو داود بسند صحيح أن امرأة ممن بايعت الرسول ﷺ قالت: **" كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ في المعروف الذي أخذ علينا، أن لا نعصيه فيه، وأن لا نخمش وجهًا[1]، ولا ندعو ويلًا[2]، ولا نشق جيبًا، وأن لا ننشر شعرًا[3]".**

١- أن لا نخمش وجهًا: أي لا نجرح وجهنا بالظفر، وهو ما ينتج عن لطم الخدود، أو تعمد جرح الوجه بالأظافر.
٢- ولا ندعو ويلًا: لا نندب بـ (يا ويلاه)
٣- أن لا ننشر شعرًا: أن لا ننفش شعرًا.

- **أما بالنسبة لحلقِ الشعر عند نزول المصيبة:**

فقد أخرج البخاري من حديث أبي بُردة بن أبي موسى قال: **" وجع أبو موسىﷺ وجعًا فغُشِيَ عليه، ورأسه في حِجْر امرأةٍ من أهله، فصاحت امرأةٌ من أهله، فلم يستطع أن يرد عليها شيئًا، فلما أفاق قال: أنا بَرِيءٌ ممن بَرِئَ منه رسول الله ﷺ، فإن رسول الله ﷺ برئ من الصالقة[1] والحالقة[2] والشاقة[3]".**

قال النووي-رحمه الله- كما في الأذكار ص:١٤٥: " وكل هذا حرام باتفاق العلماء، وكذلك يحرم نشر الشعر، ولطم الخدود، وخمش الوجه، والدعاء بالويل ". اهـ

الأدب الرابع: عدم الشكوى إلى المخلوقين:

فإذا شكا العبد ربه إلى مخلوق مثله فقد شكا من يرحمه ويلطف به ويعافيه وبيده ضره ونفعه إلى من لا يرحمه وليس بيده نفعه ولا ضره. وهذا من عدم المعرفة، وضعف الإيمان.

فالأنين والشكوى إلى الخلق وإن كان فيها راحة للمصاب إلا أنها تدل على ضعف وخور، والصبر عليها دليل قوة وعزة وهي إشاعة سر الله تعالى عند العبد، وهي تؤثر شماتة الأعداء، ورحمة الأصدقاء

قال بعضهم:

لا تشكون إلى صديق حالة ... تأتيك في السراء والضراء

فلرحمة المتوجعين مرارة ... في القلب مثل شماتة الأعداء

فليحذر العاقل من أن يشكو ربه أرحم الراحمين إلى خلقه، فهذا من جهله بربه وجهله بالناس

يقول ابن القيم -رحمه الله- كما في" كتابه الفوائد ص:٧٩": الجاهل يشكو الله إلى الناس، وهذه غاية الجهل بالمشكو والمشكو إليه، فإنه لو عرف رَبَّه لما شكاه، ولو عرف الناسَ لما شكا إليهم.

ورأى بعض السلف رجلًا يشكو إلى رجلٍ فاقته وضرورتَه فقال: يا هذا، والله ما زدت على أن شكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك.

في ذلك قيل:

وإذا اعترتك بلية فاصبر لها ... صبر الكريم فإنه بك أكرم

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما ... تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

والعارف إنما يشكو إلى الله وحده، وأعرف العارفين من جعل شكواه إلى الله من نفسه لا من الناس، فهو يشكو من موجبات تسليط الناس عليه. فهو ناظرٌ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ (سورة الشورى: ٣٠)

---

١ - الصالقة: هي التي ترفع صوتها بالنياحة عند الفجيعة بالموت، أو عند نزول المصيبة.
٢ - الحالقة: هي التي تحلق رأسها عند المصيبة.
٣ - الشاقة: هي التي تشق ثوبها عند المصيبة.

وقوله: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ (سورة آل عمران:١٦٥)

فالمراتب الثلاثة: أخسُّها أن تشكو الله إلى خلقه، وأعلاها أن تشكو نفسك إليه ﷻ، وأوسطها أن تشكو خلقه إليه. اهـ

وأخرج الحاكم والبيهقي بسند صحيح عند أبي هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ: **" قال الله تعالى: إذا ابتليتُ عبدي المؤمن، فلم يشكني إلى عُوَّاده أطلقته من إساري، ثم أبدلته لحمًا خيرًا من لحمه، ودمًا خيرًا من دمه ثم يستأنفُ العمل ".** (صحيح الجامع:٤٣٠١)

فيا له من ربٍّ رحيم، وسعت رحمته كل شيء- سبحانه وتعالى-.

وأخرج الإمام مالك في الموطأ عن عطاء بن يسار قال: **" إذا مرض العبدُ بعث اللهُ تعالى إليه ملكين، فقال: انظرا ماذا يقول لعُوَّادِه (زُوَّاره) فإن هو إذا جاءوه حمد الله، وأثنى عليه، رفعا ذلك إلى الله ﷻ وهو أعلم، فيقول: لعبدي عليّ إن توفيته أن أدخله الجنة، وإن أنا شفيته أن أبدل له لحمًا خيرًا من لحمه، ودمًا خيرًا من دمه وأن أكفر عنه سيئاتهِ "** (السلسلة الصحيحة:١/١١٤٦)

قال علي ﷺ: **" من إجلال الله ومعرفة حقه ألا تشكو وجعك، ولا تذكر مصيبتك ".**

وقال شقيق البلخي-رحمه الله-: " من شكا مصيبة به إلى غير الله، لم يجد في قلبه لطاعة الله حلاوة أبدًا.

وقال بعض الحكماء: " كنوز البر كتمان المصائب ".

قال عبد العزيز بن أبي روّاد-رحمه الله-: " ثلاثة من كنوز الجنة، كتمان المصيبة، وكتمان المرض، وكتمان الصدقة ".

- ورُوي أنه كان في زمن حاتم الأصم رجل يُقال له مُعاذٌ الكبير، أصابته مصيبة فجزع منها وأمر بإحضار النائحات، وكسر الأواني فسمعه حاتم، فذهب إلى تعزيته مع تلامذته، **وأمر تلميذًا له فقال:** إذا جلست فاسألني عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ (سورة العاديات:٦) **فسأله فقال حاتم:** ليس هذا موضع السؤال، فسأله ثانيا وثالثًا. **فقال:** معناه أن الإنسان لكفور، عدَّادٌ للمصائب، نسَّاءٌ للنعم. مثل معاذٍ هذا، إن الله تعالى متعه بالنعم خمسين سنة، فلم يجمع الناس عليها شاكرًا لله ﷻ، فلما أصابته مصيبة جمع الناس يشكو من الله تعالى. فقال معاذ: بلى. إن معاذ لكنود عدَّاد للمصائب، نسَّاء للنعم. فأمر بإخراج النائحات وتاب إلى الله عن ذلك.

الأدب الخامس: الاستعانة بالله عند نزول المصيبة:

ومما يعين المبتلى على ما أصابه أن يستعين بالله تعالى، ويلجأ إلى حماه، فيشعر بمعيته سبحانه، وأنه في حمايته ورعايته، ومن كان في حمى ربه فلن يضام. **وفي هذا يقول تعالى في خطابه المؤمنين:**

﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (سورة الأنفال: ٤٦)

وفي خطابه لرسوله ﷺ: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (سورة الطور: ٤٨)

ومن كان بمعية الله مصحوبًا، وكان بعين الله ملحوظًا، فهو أهل لأن يتحمل المتاعب ويصبر على المكاره. وانظر عندما هدد فرعونُ موسى-عليه السلام- وقومه، وأنه سيقتل أبناءهم، ويستحيي نساءهم، مستخدمًا سيف القهر والجبروت، **قال موسى لقومه:** ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ (سورة الأعراف: ١٢٨)

ولعل حاجة الصابرين إلى الاستعانة بالله تعالى والتوكل عليه هي بعض أسرار اقتران الصبر بالتوكل على الله في آيات كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (سورة النحل:٤٢) **وقوله على ألسنة الرسل:** ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (سورة إبراهيم: ١٢)

الأدب السادس: تذكر موت النبي ﷺ، وعندها يستصغر الإنسان أي مصيبة يصاب بها:

ففي الحديث الذي أخرجه ابن ماجه أن النبي ﷺ قال: " يا أيُّها الناسُ! أيُّما أحدٍ من الناس أو من المؤمنينَ أُصِيبَ بمصيبةٍ فلْيَتَعَزَّ بمصيبتِه بي، عن المصيبةِ التي تُصِيبُه بغيري، فإنَّ أحدًا من أُمَّتي، لن يُصابَ بمصيبةٍ بعدي أَشَدَّ عليه من مصيبتي ". (ضعفه بعض أهل العلم وصححه الألباني في الصحيحه:١١٠٦)

- ***وفي رواية:*** " إذا أصيب أحدكم بمصيبة فليذكر مصيبته بي فإنها أعظم المصائب ".

(رواه الدارمي في سننه والطبراني في الكبير) (صحيح الجامع:٣٤٧)

قال ابن عبد البر-رحمه الله- في التمهيد: " وصدق ﷺ لأن المصيبة به أعظم من كل مصيبة يصاب بها المسلم بعده إلى يوم القيامة، انقطع الوحي وماتت النبوة..".

ثم ذكر ابن عبد البر بسنده "عن القاسم بن محمد قال: كان أبوبكر الصديق إذا عزى عن ميت قال لوليه: ليس مع العزاء مصيبة، ولا مع الجزع فائدة، والموت أهون ما بعده وأشد ما قبله، اذكروا فقد نبيكم تهون عندكم مصيبتكم ﷺ وأعظم أجركم ".

وكتب بعض العقلاء إلى أخ له يعزيه عن ابن له يقال له: محمد فأرسل إليه وقال:

اصبر لكل مصيبة وتجلد ... واعلم أن المرء غير مخلد

وإذا ذكرت محمدًا ومصابه ... فاذكر مصابك بالنبي محمد

تنبيه: قولنا عند المصيبة:" وأبدلنا خيرا منها"، إنما يقال عند المصيبة بغيره ﷺ؛ لأنه لن يأتي بعده ولم يأت قبله من هو خير منه.

الأدب السابع: أن يعلم أن القدر جرى بها، وأنها مقدرة في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق الله الخلق، فلا بد منها:

فإنه ليس لأحد مفر عن أمر الله وقضائه، ولا محيد له عن حُكمه النافذ وابتلائه.

قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (سورة التوبة: ٥١)

وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الحديد: ٢٢)

من تأمل هذه الآية وتدبَّرها وجد فيها شفاء، وتبديدًا للهموم والأحزان. وهذا عندما يؤمن العبد ويوقن بأن قدر الله نافذ لا محالة، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطئه لم يكن ليصيبه، وقد جفت الأقلام بهذا وطويت الصحف. فهذا يهون عليه ويعينه على الصبر.

وقال السعدي في تفسيره عند الآية السابقة: " ما أصاب من مصيبة في النفس، والمال والولد، والأحباب، ونحوهم إلا بقضاء الله وقدره، قد سبق بذلك علمه وجرى به قلمه، ونفذت به مشيئته، واقتضته حكمته، فإذا آمن العبد أنها من عند الله فرضي بذلك وسلم لأمره، فله الثواب الجزيل والأجر الجميل، في الدنيا والآخرة، ويهدي الله قلبه فيطمئن ولا ينزعج عند المصائب، ويرزقه الله الثبات عند ورودها، والقيام بموجب الصبر فيحصل له بذلك ثواب عاجل، مع ما يدخره الله له يوم الجزاء من الثواب. اهـ.

وقال جل وعلا: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة التغابن: ١١)

قال علقمة -رحمه الله- في تفسير هذه الآية: " هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم ". (تفسير ابن جرير: ١٢٣/٢٨، تفسير ابن كثير: ٨/ ١٦٣) (رواه البخاري في كتاب التفسير)

وأخرج الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو-رضي الله عنهما- قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: **" كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ".**

وأخرج الإمام أحمد والترمذي من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: **كنت خلف رسول الله ﷺ يوما فقال:" يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك بشيء إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف ".** (صحيح سنن الترمذي: ٢٤٤٠).

ولهذا لما جيء بسعيد بن جبير -رحمه الله- إلى الحجاج (ليقتله) بكى رجل، فقال سعيد: ما يبكيك؟ قال: لما أصابك، قال، فلا تبك، كان في علم الله أن يكون هذا، ثم تلا: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (سورة الحديد:٢٢)

(طبقات ابن سعد:٢٦١/٦) (سير أعلام النبلاء:٣٣٧/٤)

فإذا علم المبتلى هذا بأن هذه المصيبة مقدرة عليه في أم الكتاب وأنه لابد منها، فجزعه لا يرد المصيبة، بل يزيده بلاءً وغمًّا وهمًّا.

قال بعض الحكماء يقول: الجزع لا يرد الفائت، ولكن يسر الشامت.

وقال علي بن أبي طالب ﷺ: **"إنك إن صبرت جرت عليك المقادير وأنت مأجور، وإن جزعت جرت عليك المقادير وأنت مأزور".** (الرضا لابن أبي الدنيا ص:٢٩) (منهاج العابدين للغزالي ص: ٢٣٩)

فيا أيها المبتلى.... اعلم أن كل مصيبة تأتي فهي بإذن الله، ووفق قدر معلوم وقضاء مرسوم وحكمة أزلية، وكن على يقين أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، فوطِّن نفسك على هذا.

ما قد قُضي يا نفس فاصطبري له ... ولك الأمان من الذي لم يُقدَّرِ

ثم اعلمي أن المُقدَّر كائن ... حتمًا عليك صبرت أم لم تصبري

وكان السلف يعلمون هذا جيدًا، فها هي إحدى الصالحات تقول عندما أُصيبت بأحد أبنائها: "الحمد لله على السراء والضراء، والعافية والبلاء، والله ما أحب تأخير ما عجل الله، ولا تعجيل ما أخَّرَ الله، وكل ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير.

فما أبرم الله لم ينتقض ... وما نقض الله لم يبرم

اعلم أن الذي قدر عليك الأقدار حكيم خبير لا يفعل شيئًا عبثًا ولا يقدر شيئًا سدى، بل هو رحيم تنوعت رحمته سبحانه وبحمده، يرحم العبد فيعطيه، ثم يرحمه فيوفقه للشكر، ثم يرحمه فيبتليه، ثم يرحمه فيوفقه للصبر، ثم يرحمه فيكفر بالبلاء ذنوبه وآثامه، ثم ينمي حسناته ويرفع درجاته، ثم يرحمه فيخفف من مصيبته وطأتها، ويهون مشقتها ثم يتمم أجرها، فرحمته متقدمة على التدابير السارة والضارة ومتأخرة عنها، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

يقول المنبجي- رحمه الله- كما في" تسلية أهل المصائب ص:٢٠-٢٢": ومما يتسلى به المصاب أن يوطن نفسه على أن كل مصيبة تأتيه هي من عند الله، وأنها بقضائه وقدره، وأنه سبحانه وتعالى لم يقدرها عليه ليهلكه بها ولا ليعذبه، وإنما ابتلاه ليمتحن صبره ورضاه.

قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ (سورة النساء: ١٤٧)

فليعلم المكروب أن حظه من المصيبة ما يحدث له، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط، ومن رضي بقضاء الله جُزي عليه وكان له أجر، ومن لم يرضَ بقضاء الله جرى عليه وحبط عمله، فقضاء الله نافذ كالسيف وأمره واقع، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ولكن العبد هو الذي يربح أو يخسر بحسب رضاه وسخطه، جعلنا الله من الراضين بقضائه وقدره.

الأدب الثامن: أن يعلم أن الله قد ارتضاها له واختارها وقسمها، وأن العبودية تقتضي رضاه بما رضي له به سيده ومولاه:

فالله ﷻ له الملك كله وله الحمد كله قد أذل الخلق وقهرهم، **كما قال تعالى:**

﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (سورة هود: ٥٦)

وهذا من تمام الإيمان بربوبية الله ﷻ ومشيئته النافذة فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

فيتدبر العبد ذل العبودية، وكيف أنه عبد مدبر مقهور، ناصيته بيد ربه يتصرف فيه مالكه كيف يشاء ويبتليه بما شاء، وليس له إلا الرضا والتسليم، بل والمحبة والإيمان الكامل بكمال العدل والحكمة وإليه الإشارة بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (سورة البقرة: ١٥٦)

فإذا ابتلي العبد المؤمن اقتضى إيمانه أن يريد ما أراد الله تعالى، ويرضى بما يقدر، إذ لو لم يكن كذلك كان خارجًا عن حقيقة العبودية.

وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عن ابن عون أنه قال: " ارض بقضاء الله على ما كان من عُسر ويُسر؛ فإن ذلك أقل لغمِّك، وأبلغ فيما تطلب من أمر آخرتك، واعلم أن العبد لن يصيب حقيقة الرضا، حتى يكون رضاه عند الفقر والبلاء، كرضاه عند الغنى والرخاء، كيف تستقضي الله في أمرك، ثم تتسخط إن رأيت قضاءه مخالفًا لهواك؟! ولعل ما هويت من ذلك، لو وُفِّق لك، لكان فيه هلكك، وترضى قضاءه إذا وافق هواك، وذلك لقلة علمك بالغيب، وكيف تستقضيه؟ إن كنت كذلك ما أنصفك من نفسك، ولا أصبت باب الرضا.

يقول أبو الدرداء ﷺ: " إن الله إذا قضي قضاءً أحب أن يرضى العبد به ".

فنعم للصبر والرضا، ولا للجزع والتسخُّط.

فقد أخرج الترمذي عن أنس ﷺ ***أن النبي*** ﷺ ***قال:*** " إن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط ". – ***وفي رواية:*** ومن جزع فله الجزع.

فأنفع الأدوية للمصاب موافقة ربه وإلهه فيما أحبه ورضيه له، وإن خاصية المحبة وسرها موافقة المحبوب، فمن ادعى محبة محبوب، ثم سخط ما يحبه، وأحب ما يسخطه، فقد شهد على نفسه بكذبه، وأسخط عليه محبوبه "

وقال محمد بن علي –رحمه الله– :" ندعو الله فيما نحب، فإذا وقع ما نكره لم نخالف الله فيما أحب".

(الرضا عن الله ص: ٧٩).

يقول ابن ناصر الدين الدمشقي:

سبحان من يبتلي أُناسًا ... أحبهم والبلاء عطاءُ

فاصبر لبلوى وكن راضيًا ... فإن هذا هو الدواءُ

سلِّم إلى الله ما قضاه ... ويفعل الله ما يشاءُ

(برد الأكباد عند فقد الأولاد ص: ١٢)

الأدب التاسع: ألا يتسخط عند نزول المصيبة، وليعلم أن الله أراد به الخير:

فلا بد للمبتلى أن يعلم أن هذه المصيبة هي دواء نافع ساقه إليه الطبيب العليم بمصلحته الرحيم به، فليصبر على تجرعه ولا يتقيأه بتسخطه وشكواه، فيذهب نفعه باطلا.

اعلم أيها المبتلى... أن الله سبحانه أرحم بك من نفسك ومن والديك ومن الناس أجمعين.

قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام: ٥٤)

وهذا إخبار منه سبحانه بأنه كتب الرحمة على نفسه تفضلًا منه بذلك، من غير أن يوجبها عليه موجب أو يقترحها عليه مقترح. **وقال جل وعلا:** ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٥٦)

وقال أيضًا إخبارًا عن دعاء الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ (غافر:٧)

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (الأنبياء:٨٣)

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" لما خلق الله الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي ". - *وفي رواية:*** **" إن رحمتي سبقت غضبي ".**

وأخرج البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: **" قدم على النبي ﷺ سبي، فإذا امرأة من السبي تحلب ثديها تسعى إذا وجدت صبيًا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا. وهي تقدر ألا تطرحه، فقال: لله أرحم بعباده من هذه بولدها ".**

فإذا علمت أن الله أرحم بك من نفسك ومن والدتك، دعاك هذا إلى الاستسلام لما يقضيه، والصبر على تدبيره، لعلمك أن ما يصيبك هو عين الرحمة بك؛ لأن الذي قضاه عليك أرحم الراحمين.

وأخرج الإمام أحمد وأبو نعيم وأبو يعلى من حديث أنس بن مالك ﷺ قال: **كنا عند رسول الله ﷺ جلوسًا فضحكَ، فقال:" أتدرون مما أضحك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم فقال:" عجِبْتُ لأمْرِ المؤمِنِ، إنَّ اللَّهَ لم يَقْضِ له قَضاءً إلَّا كان خيرًا له ".** (صحيح الجامع:٣٩٨٥)

فعلى المبتلى أن يعلم أن في عقبى هذا البلاء من الشفاء، والعافية، والصحة، وزوال الألم، ما لم تحصل بدونه، فإذا طالعت نفسه كراهة هذا البلاء ومرارته، فلينظر إلى عاقبته وحسن تأثيره.

قال تعالى في حديث الأفك: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ (النور: ١١)

وقال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢١٦)

وقال الحسن -رحمه الله-:

لا تكرهوا البلايا الواقعة والنقمات الحادثة، فلرب أمر تكرهه فيه نجاتك، ولربك أمر تؤثره فيه عطبك.

يا صاحب الهم إن الهم منفرج	أبشر بخير فإن الفارج الله
اليأس يقطع أحيانًا بصاحبه	لا تيأسن فإن الكافي الله
إذا بُليت فثق بالله وارض به	فإن الذي يكشف البلوى هو الله
الله يُحدث بعد العسر ميسرة	لا تجزعن فإن الصانع الله
والله ما لك غير الله من أحدٍ	فحسبك الله في كلٍ لك الله

فكم مغبوط بنعمة هي داؤه، ومحروم من دواء حرمانه هو شفاؤه. كم من خير منشور وشر مستور، ورُبَّ محبوب في مكروه، ومكروه في محبوب. **قال الله تعالى:** ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢١٦)

فلابد للمصاب أن يُحسن الظن بالله ﷻ ويعلم أن الله سيجعل له فرجًا ومخرجًا، فقد قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح: ٥، ٦)

وقال ﷺ في وصيته لابن عباس -رضي الله عنهما-: "واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا ". (رواه الإمام أحمد عن أنس وهو في السلسلة الصحيحة:٢٣٨٢)

واعلم أيها المبتلى... أن الله تعالى لم يقدر عليك هذه المصيبة ليهلكك بها ولا ليعذبك، إنما ابتلاك ليمتحن صبرك ورضاك عنه.

لما أرادوا قطع رجل عروة بن الزبير قالوا له: لو سقيناك شيئًا كي لا تشعر. قال:" إنما ابتلاني ليرى صبري ".

الأدب العاشر: أن يتهم نفسه ويعلم أن هذا البلاء بما كسبت يداه، وأنه أُوتيَ مِنْ قِبَلِ نفسه:

قال الحسن -رحمه الله-: " **ابتلى عمران بن حصين ﷺ في جسده فقال: ما أراه إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر وتلا: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾** (الشورى: ٣٠)

وهكذا يعود العبد باللوم على نفسه وينزه ربه عن الظلم، فيحسن الظن بربه، راضيًا بقضائه وقدره.

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ (النساء:٧٩)

وقال علي بن أبي طالب ﷺ: ما نزل بلاءٌ إلا بذنب، ولا رُفع إلا بتوبة.

فما زالت عن العبد نعمة، ولا حلت به نقمة، وتحول الله له من حال العافية إلى حال البلاء إلا بكسبه وما صنعت يداه"

قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

(آل عمران: ١٦٥)

أخرج ابن ماجه عن ابن عمر-رضي الله عنهما- قال: " **أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: يا معشر المهاجرين، خمسٌ إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تُدْرِكُوهُنّ، لم تظهر الفاحشةُ في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المئونةِ وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم، إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوًا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتُهُم بكتاب الله ويتخيروا ما أنزل الله إلا جعل اللهُ بأسهم بينهم** ".

وقال زيادُ بن الربيع: " **قلت لأُبيِّ بن كعب آيةٌ في كتاب الله قد أخذتني: قال: ما هي؟ قلت: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾** (النساء: ١٢٣) **قال: ما كنتُ أراك إلا أفقهُ مما أرى، إنَّ المؤمن لا تصيبه عَثْرةُ قدم ولا اختلاج عِرق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر**".

فإذا علم الإنسان بهذا فعليه أن يُسرع حينئذ بالتوبة والاستغفار، عسى أن يغفر له الله زلاته ويتوب عليه.

الأدب الحادي عشر: أن يتذكر أن نعم الله عليه كثيرة، فإذا أخذ فكم أعطى، وإذا ابتلى فكم عافى:

قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ (النحل: ١٨)

ومن أعظم هذه النعم، أن يتذكر كيف هداه الله للإسلام وجعله من أمة خير الأنام ﷺ، **قال تعالى:** ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ (سورة الأعراف:٤٣)

فلا تكن ممن يذكر المصائب وينسى النعم.

أخرج ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات وابن جرير في تفسيره عن الحسن البصري -رحمه الله- في قوله: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ (سورة العاديات: ٦) قال: يذكر المصائب وينسى النعم.

وتأمل قصة عروة بن الزبير -رحمه الله- كيف كان صبره؟ وكيف كان استحضاره لنعم الله عليه؟ وهو في أشد المحنة وتسليه بما أبقاه الله عليه، وخلاصتها أن عروة أصيب بمرض الأَكِلَة[1] في رجله وهو مسافر، فقرر الطبيب قطعها من منتصف الساق فقطعها، ثم أصيب في ذلك السفر بموت ابنه محمد حيث رفسته بغلة، فجعل عروة يقول - وقد اجتمعت عليه المصيبتان في آن واحد -:

" اللهم كان لي بنون سبعة فأخذت واحدًا وأبقيت لي ستة، وكان لي أطراف أربعة فأخذت واحدًا وأبقيت لي ثلاثة، ولئن أخذت لقد أبقيت، ولئن ابتليت فقد عافيت، وما ترك جزأه من القرآن في تلك الليلة."

(أخرجه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات، وفي سير أعلام النبلاء:٤/ ٤٢٩)

***قال ابن القيم -رحمه الله-:* تهوين البلية بأمرين:**

أحدهما: أن يعد نعم الله عليه، وأياديه عنده، فإذا عجز عن عدها، وأَيِسَ من حصرها . هان عليه ما هو فيه من البلاء، ورآه . بالنسبة إلى أيادي الله ونعمه . كقطرة من بحر.

الثاني: تذكر سوالف النعم التي أنعم الله بها عليه. فهذا يتعلق بالماضي وتعداد أيادي المنن يتعلق بالحال". اهـ. **(مدارج السالكين: ١٦٧/٢)**

وانظر إلي أيوب عليه السلام لما مكث في بلواه ثماني عشرة سنة فقالت له امرأته: يا أيوب. لو دعوت ربك لفرج عنك. فقال: قد عشت سبعين سنة صحيحًا، فهل قليل لله أن أصبر له سبعين سنة؟

(قصص الأنبياء لابن كثير ص: ٢٥٩)

وأنشد محمود الوراق -رحمه الله-:

يا أيها الظالم في فعله ... والظلم مردود على من ظلم

إلى متى أنت وحتى متى ... تشكو المصيبات وتنسى النعم

(الشكر لابن أبي الدنيا ص: ٩٥)

١- الأَكِلَة: بفتح الهمزة وكسر الكاف: داء يقع في العضو فيأكل منه. (اللسان:١١/٢٢)

الأدب الثاني عشر: تذكر الموت وسرعة الانتقال عن هذه الدار، فالموت ما ذُكِرَ في شدة وضيق إلا وسعه، ولا ذُكِرَ في سعة إلا ضيقها.

فقد أخرج ابن حبان والطبراني في الأوسط بسند حسن عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: " أكثروا ذِكرَ هاذم اللَّذات: الموت، فإنه لم يذكره أحدٌ في ضيقٍ من العيش إلا وسَّعه عليه، ولا ذكره وهو في سعةٍ إلا ضيَّقها عليه ". (صحيح الجامع:١٢١١)

وقوله: " هاذم اللذات" بالذال، أي: قاطع اللذات". (لسان العرب:١٢/ ٦٠٦)

والمراد أن العبد إذا ذكر الموت وهو في حالة ضيق من مرض أو غيره، هان عليه ذلك وتوسع عليه ما هو فيه من الضيق؛ لعلمه بسرعة الارتحال عنه وموافاته لثوابه وأجره. وإذا ذكره في حال سعة ضاقت عليه؛ لعلمه بالانتقال عنها وسرعة زوالها، وهذا خير له من أن ينهمك في الملذّات وينسى الموت وما وراءه.

وقال عمر بن عبد العزيز-رحمه الله-: " إذا كنت من الدنيا فيما يسوؤك فاذكر الموت، فإنه يسهل عليك". (الفرج بعد الشدة: لابن أبي الدنيا ص: ٤٢)

وقال الماوردي-رحمه الله- في الأسباب التي تسهل المصيبة: " فمنها استشعار النفس بما تعلمه من نزول الفناء، وتقفِّي المسار، وأن لها آجالًا منصرمة، ومددًا منقضية، إذ ليس في الدنيا حال تدوم، ولا لمخلوق فيها بقاء ". (أدب الدنيا والدين ص: ٤٦٠)

الأدب الثالث عشر: أن يعلم المبتلى أن البلاء قد يكون أكبر من هذا، لكن الله خفف عنه فابتلاه بما هو عليه الآن، فيحمله هذا على الحمد والرضا:

قال شريح القاضي -رحمه الله-: " إني لأصاب بالمصيبة، فأحمد الله عليها أربع مرات، أحمده إذ لم تكن أعظم منها، وأحمده إذ رزقني الصبر عليها، وأحمده إذ وفقني للاسترجاع لما أرجو من الثواب، وأحمده إذ لم يجعلها في ديني ". (سير أعلام النبلاء: ٤/ ١٠٥) (رواه ابن أبي الدنيا)

وقال حبيب بن عبيد -رحمه الله-: "وما ابتلى الله عبدًا ببلاء إلا كان لله عليه فيه نعمة ألا يكون ابتلاه بأشد منه ". (الشكر لابن أبي الدنيا ص: ١٣١)

وعن عبد العزيز بن أبي روّاد-رحمه الله- قال: رأيت في يد محمد بن واسع -رحمه الله- قرحةً، قال: فكأنه رأى ما شقّ عليّ منها، فقال لي: تدري ماذا لله عليّ في هذه القرحة من نعمة؟ فأسكت، قال: إذ لم يجعلها على حَدَقتي (أي: عيني) ولا على طرف لساني، ولا على طرف ذكري. فهانت عليّ قرحته ".
(الشكر لابن أبي الدنيا ص: ١٤٠)

الأدب الرابع عشر: أن يعلم المبتلى أن مصيبته مهما عظمت فهي هينة يسيرة طالما أنها ليست في الدين:

فالمصيبة في الدين من أعظم المصائب في الدنيا والآخرة وهي نهاية الخسران الذي لا ربح معه والحرمان الذي لا عوض بعده.

قال السفاريني -رحمه الله-: المصائب تتفاوت، فأعظمها مصيبة الدين، نعوذ بالله من ذلك فإنها أعظم مصيبة، والمسلوب من سُلب دينه.

وكل كسر لعل الله جابره وما لكسر قناة الدين جبرانُ

ولذلك كان النبي ﷺ يدعو بهذا الدعاء فيقول: **" ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همّنا ولا مبلغ علمنا ".** (رواه الترمذي والحاكم وحسنه الألباني في صحيح الجامع:١٢٦٨)

فإذا رأيت إنسانًا لا يبالي بما أصابه في دينه من ارتكاب الذنوب والخطايا، ومن فوات الجمعة والجماعة وأوقات الطاعة، وولوغٍ في المحرمات ومن انتهاك للحرمات، وانتهاك لحدود الله وتجاوز لها، فاعلم أنه المصاب حقًا، ثم اعلم أخرى أنه ميت لا يحس بألم المصيبة ولا يشعر: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ (النمل: ٨٠)

وكان عمر ﷺ يقول كما ذكر ذلك الغزالي في الأحياء:٤/٢٢٩": **ما ابتليت ببلاء إلا كان لله عليّ فيه أربع نعم: إذ لم يكن في ديني، وإذ لم يكن أعظم منه، إذ لم أحرم الرضا به، وإذ أرجو الثواب عليه. اهـ.**

من كل شيء إذا ضيعته عوض وما من الدين إن ضيعت من عوض

وكانت هناك امرأة من العابدات بالبصرة تصاب بالمصائب فلا تجزع، فذكر لها ذلك، فقالت: ما أصاب بمصيبة فأذكر معها النار إلا صارت في عيني أصغر من الذباب. اهـ.

فاحمد الله أنك لم تكن مصابًا في دينك؛ بفقد الإيمان، أو الاتصاف بالنفاق، أو بالتقصير في واجب، أو الوقوع في محرم، فهذه هي المصيبة على الحقيقة.

الأدب الخامس عشر: الاستعانة بالصلاة عند حلول المصيبة:

فمما يهون على المبتلى ويرفع عنه الآلام والأحزان: الاستعانة بالصلاة عند نزول البلاء.

فقد أخرج الإمام أحمد وأبو داود عن حُذيفة ﷺ قال: **كان رسول الله ﷺ إذا حزبه [1] أمر صلَّى.**

(صحيح أبي داود:١١٩٢)

وروى سعيد بن منصور أن ابن عباس-رضي الله عنهما- نُعِي إليه أخوه قثم – وهو في سفر – فاسترجع ثم تنحى عن الطريق، فأناخ ثم صلى ركعتين فأطال فيهما الجلوس ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول:

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (سورة البقرة: ٤٥)

١ـ قال في النهاية: حزبه: نزل به مّهم أو أصابه غم.

الأدب السادس عشر: أن يعلم يقينًا أن هذا البلاء سيعقبه فرج قريب، وأن مع العسر يسرا:

فانتظار الفرج يهون المصيبة ويعين على الصبر عليها. فعلى المبتلى أن يحسن الظن بربه تعالى، ويعلم أن الله سيجعل له بعد الضيق مخرجًا وبعد الكرب فرجًا. **قال تعالى:** ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (سورة الشرح:٥، ٦)

وقال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ (الطلاق:٧)

وهذا يؤكد على قرب تحقق اليُسر بعد العسر، حتى كأنه معه، ومتصل به.

يقول بعض السلف: "لو دخل العُسر جحرًا لتبعه اليُسر".

وأخرج الإمام أحمد عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال لابن عباس-رضي الله عنهما-: "واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا ". (الصحيحة:٢٣٨٢)

ولرب نازلـة يضيق بهـا الفتى ذرعًا وعند الله منها المخرجُ
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكان يظنها لا تفرجُ

فالرجاء في الله تعالى واجب على المسلم، وخصوصًا عند نزول هذه المصائب.

قال الشافعي -رحمه الله-:

صبرًا جميلًا ما أقرب الفرجا من راقب الله في الأمور نجا
مـن صدق الله لـم ينله أذى ومن رجـاه يكون حيث رجـا

فالواجب على المسلم أن يعلق رجاءه بالله تعالى عند نزول المصائب به، فإن الذي قدر عليه المصيبة هو القادر على كشفها، وهو سبحانه تعالى الذي يملك أن يبدلها فرجًا، ويعقبها يسرًا وفضلًا؛ فلذا كان من الأهمية بمكان التعلق به سبحانه عند الشدة، وإنزال الحاجة به، وتوجه القلب إليه سبحانه برجاء تفريج المصيبة، ودفع الهم والغم. وهكذا يجب أن يكون المسلم عند الشدة والمصيبة، فإن تعلق القلب بالله تعالى هو من أجلى مظاهر العبودية لله عز وجل.

وذكر الماوردي -رحمه الله- الأسباب التي تسهل المصيبة وتخفف الشدة فقال: ومنها أن يتصور انجلاء الشدائد، وانكشاف الهموم، وأنها تتقدر بأوقات لا تتصرم قبلها، ولا تستديم بعدها، فلا تقصر بجزع، ولا تطول بصبر، وإن كل يوم يمر بها فهو يذهب منها بشطر ويأخذ منها بنصيب، حتى تنجلي وهو عنها غافل. اهـ.

ونحن نرى أن أحلك ساعات الليل ظلمة وسوادًا هي التي تسبق بزوغ الفجر، ولهذا قيل:

اشتـدي أزمــة تنفـرجي قـد آذن ليـلك بـالبلـج

الأدب السابع عشر: أن يعلم أن الله سيكافئه في الدنيا بأفضل مما فقد؛ إذا صبر واحتسب:

إن الله لا يضيع أجر الصابرين، ولا مثوبة المحسنين، فهو في الدنيا يُعوِّضهم ويُخلف عليهم خيرًا مما حُرِموا، ويُمَكِّن لهم بعد أن غُلِبوا، وفي الآخرة يُؤتيهم أجرهم بغير حساب.

يقول تعالى واعدًا المهاجرين في سبيله بحسن العوض عما حُرموا من الوطن والعشيرة: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (سورة النحل: ٤١، ٤٢)

١- وها هو نبي الله أيوب عليه السلام: لبث في بلائه ثمان عشرة سنة، حتى إن الناس ملوا زيارته، لطول المدة، فلم يبق معه إلا رجلان من إخوانه يزورانه، وقد عرفنا في قصته عليه السلام كيف صبر على ما أصابه من ضُرٍّ في نفسه وأهله، فانتهى به الصبر إلى أجمل العواقب، فشفاه الله تعالى وكشف عنه ضُره، ووهب له أهله ومثلهم معهم، وأنعم الله عليه بالأموال من الذهب والفضة، مع ما أدخره له في الآخرة من عظيم الثواب. وهذا يؤكد لنا أن الصبر المُرّ لا يُجتنى من ورائه إلا أحلى الثمرات في الدنيا قبل الآخرة. ومن هنا جاء خطاب الله تعالى لرسوله ﷺ في سورة هود إذ يقول: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (هود: ١١٥) فثمرة الصبر لا تضيع في الأولى ولا في الآخرة.

٢- ويتحدث القرآن على لسان يوسف حين كشف لإخوته عن نفسه فقالوا: ﴿أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة يوسف: ٩٠)

٣- وما حدث لإبراهيم عليه السلام عندما ابتلاه الله بذبح ابنه فوجده طائعًا لأمره، ففداه بذبحٍ عظيم، وأمره ببناء البيت الحرام.

٤- وما حدث لأم سليم زوجة أبي طلحة حين صبرت على فقد ولدها، عوضها الله خيرًا من ذلك ولدًا جاء من نسله تسعة أولاد كلهم يحفظون القرآن.

٥- ويعقوب عليه السلام غاب عنه ولده يوسف سنين عديدة وهو يصبر، ويكابد الآلام، ثم يفقد ابنه الثاني، ويصبر ويفقد بصره ولم يفقد صبره، ويعوضه الله أن يعودوا إليه جميعًا ويجمع شمل أولاده، ويعود إليه بصره.

٦- وموسى عليه السلام يغيب عن أمه صغيرًا وعن قومه كبيرًا فيصبر، فتكون له العاقبة.

٧- والنبي محمد ﷺ يخرجه قومه من بلده - وهي أحب البلاد إليه- فيصبر ويحتسب ولكنه يرجع إليها عزيز الجانب. وغير ذلك من سيرة الصابرين المحتسبين، فعوضهم الله جزاء صبرهم في الدنيا، مع ما أدخره لهم في الآخرة من أجر وثواب.

٨- ومن الوقائع الثابتة التي تدل على أن الله يُعَوّض الصابرين خيرًا مما فقدوا **ما رواه مسلم في صحيحه عن أم سلمة – *رضي الله عنها- قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول:*** " ما مِن مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فيَقولُ ما أمَرَهُ اللَّهُ: ﴿إنَّا لِلَّهِ وإنَّا إلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٥٦)، اللَّهُمَّ أْجُرْنِي في مُصِيبَتِي، وأَخْلِفْ لي خَيْرًا مِنْها، إلَّا أخْلَفَ اللَّهُ له خَيْرًا مِنْها، قالَتْ: فَلَمَّا ماتَ أبو سَلَمَةَ، قُلْتُ: أيُّ المُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِن أبِي سَلَمَةَ؟ أوَّلُ بَيْتٍ هاجَرَ إلى رَسولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ إنِّي قُلْتُها، فأخْلَفَ اللَّهُ لي رَسولَ اللهِ ﷺ".

الأدب الثامن عشر: التأسي بأهل المصائب:

ومما يهون على المبتلى ويخفف عنه ألم المصيبة؛ التأسي بأهل المصائب.

يقول ابن القيم –رحمه الله- كما في" زاد المعاد: ٤/ ١٩٠" : " ومن علاجه: أن يطفئَ نار مصيبته بِبَرْدِ التأسي بأهل المصائب، ولينظر يمنةً فهل يرى إلا محنة؟ ثم ليعطِفْ يسرة فهل يرى إلا حسرة؟ وإنه لو فتش العالم لم يرَ فيهم إلا مبتلًى: إما بفوات محبوب، أو حصول مكروه، وأن سرور الدنيا أحلام نوم أو كظلٍّ زائلٍ، إن أضحكت قليلًا، أبكت كثيرًا، وإن سرَّت يومًا أساءت دهرًا، وإن متعت قليلًا منعت طويلًا، وما ملأت دارًا حبرة إلا ملأتها عبرة، ولا سرَّته بيومِ سُرُورٍ، إلا خبأت له يوم شُرُورٍ. اهـ

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: " لكل فرحة ترحة، وما مُلئ بيت فرحًا، إلا مُلئ ترحًا ".

ولما حضرت الإسكندر الوفاة كتب إلى أمه: أن اصنعي طعامًا يحضره الناس، ثم تقدمي إليهم ألا يأكل منه محزون، ففعلت، فلم يبسط أحد إليه يده، فقالت: ما لكم لا تأكلون؟! فقالوا: إنك تقدمت إلينا ألا يأكل منه محزون، وليس منا إلا من قد أصيب بحميم أو قريب!! فقالت: مات والله ابني، وما أوصَى إليَّ بهذا إلا ليعزيني به!! (العقد الفريد:٣/٢٣٣) (جنة الرضا:٣/٢٦)

فالمصائب في الدنيا إذا عمت هان الخطب وتسلى الناس بعضهم ببعض وكل مصاب بفقد الأحباب لو فتش هذا العالم كله، لم ير إلا مبتلى بفوات محبوب، أو بحصول مكروب، فهذا يسرِّي عنه. وإذا نظر حوله في كل قرية أو مدينة بل في كل بيت من أصيب مرة ومنهم من أصيب مرارًا، وليس ذلك بمنقطع حتى يأتي على جميع أهل البيت حتى نفس المصاب سيصاب يومًا بنفسه أسوة بأمثاله ممن تقدمه.

وليعلم كل مصاب أنه مهما نزلت به مصيبة فهناك من الناس من أصيب بأعظم منها وإذا نظر إلى أحوال المكروبين وجد أن مصيبته بينهم ما هي إلا ذرة في فضاء المصائب وقطرة في بحار الكروب فيهون عليه الخطب.

تـأس أطـال الله عمـرك بـاللائي ... مضـوا ولهم ذكـر جميل مخلـد

فلو لم يكن في الموت خير لمن مضى ... لمـا مـات خير الأنبيـاء محمدُ

فبرد التأسي لأهل المصائب يطفئ نار المصيبة ويهون الخطب، قالت الخنساء تنعي أخاها صخرًا وذلك قبل الإسلام:

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن أُعزِّي النفس عنهم بالتأسي

(ديوان الخنساء: ص:٨٤)

وانظر إلى حال الأنبياء- وهم قدوتنا- كانوا أكثر الناس ابتلاء ثم الذين دونهم ثم الأمثل فالأمثل، فإذا قرأت في سيرتهم وعرفت أحوالهم هان عليك ما تجد من ألم المصيبة وشدة البلاء. **قال تعالى:**

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا . .﴾ (البقرة: ٢١٤)

يقول ابن عباس-رضي الله عنهما-: **" أخبر الله تعالى المؤمن أن الدنيا دار بلاء وأنه مبتليهم فيها، وأخبرهم أنه هكذا فعل بأنبيائه وصفوته لتطيب أنفسهم فقال: ﴿مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ[١]وَالضَّرَّاءُ[٢]وَزُلْزِلُواْ[٣]﴾.**

(الدر المنثور) (وأخرجه ابن أبي حاتم وابن المنذر)

يقول ابن القيم -رحمه الله- في كتابه الفوائد: يا مخنَّثَ العزم أين أنت، والطريقُ طريقٌ تعب فيه آدم، وناح لأجله نوح، ورُمي في النار الخليل، وأُضجع للذبح إسماعيل، وبيع يوسف بثمن بخس، ولبث في السجن بضع سنين، ونُشر بالمنشار زكريا، وذبح السيد الحصور يحيى، وقاسى الضرَّ أيوب، وزاد على المقدار بكاءُ داود، وسار مع الوحش عيسى، وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد ﷺ.

ويقول ابن الجوزي-رحمه الله-: **علاج المصائب بسبعة أشياء: الأول:** أن يعلم بأن الدنيا دار ابتلاء، والكرب لا يرجى منه راحة. **الثاني:** أن يعلم أن المصيبة ثابتة. **الثالث:** أن يقدر وجود ما هو أكثر من تلك المصيبة. **الرابع:** النظر في حال من ابتلي بمثل هذا البلاء، فإن التأسي راحة عظيمة. **الخامس:** النظر في حال من ابتلي أكثر من هذا البلاء فيهون عليه هذا. **السادس:** رجاء الخلف، إن كان من مضى يصح عنه الخلف: كالولد والزوجة. **السابع:** طلب الأجر بالصبر في فضائله، وثواب الصابرين وسرورهم في صبرهم، فإن ترقى إلى مقام الرضى فهو الغاية. اهـ.

١- البأساء: الفتن.
٢- والضراء: السقم.
٣- وزلزلوا: بالفتنة وأذى الناس إياهم.

الأدب التاسع عشر: الوقوف على حِكَم وفوائد الابتلاء:

ففي الابتلاء فوائد عظيمة، وحكم ربّانية جليلة، منها ما ظهر لنا بالاستقراء وعُلِمَ ما فيه من النعماء، ومنها ما لم يظهر، لكن ادَّخر الله به فضلًا غزيرًا.

قال تعالى: ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ (سورة النساء:١٩)

وصدق القائل حيث قال:

إذا اشتدَّت البلوى تخَفَّفْ بالرضا ... عن الله قَدْ فَازَ الرضِيُ الْمُرَاقِبُ

وكم نِعْمَةٍ مقْرُونَةٍ بِبَلِيَّةٍ ... على النَّاسِ تَخْفى والبَلايا مَوَاهِبُ

ومن حكم وفوائد الابتلاء: زوال قسوة القلب وانكسار العبد لله ﷻ- معرفة قيمة وقدر العافية، فإن النعم لا تُعرف أقدارها إلا بعد فقدها- قطع العلائق عن الخلائق والتعلق بالخالق- رحمة أهل البلاء ومساعدتهم على بلواهم- أنه يُخَلِّص العبد من الكبر والعجب والفخر والخيلاء والتجبر- أنه يكون سببًا في الرجوع إلى الله تعالى، والوقوف ببابه والتضرع والاستكانة والدعاء- القيام بالعبودية على اختلاف الأحوال- أنه يفرق بين الطيب والخبيث- أنه يُمَحِّصُ ما في القلبِ- **دليل على محبة الله عز وجل للعبد**، ولو لم يكن من حكم وفوائد الابتلاء إلا هذا لكفى. بالإضافة إلى أن الله يكفر بهذا الابتلاء السيئات، ويغفر به الزلات، ويكتب به الحسنات، ويرفع به الدرجات، وسبيل لسكنى الجنات. وهذا من رحمة الله تعالى وفضله ومحبته للمبتلى وإرادة الخير له؛ ولنا مع هذا العنصر الأخير وقفات لأهميته.

أخرج البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" من يرد الله به خيرًا يُصِب منه".**

وأخرج الترمذي وابن ماجه بسند صحيح عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط [1]".**

وانظر إلى قوله ﷺ: **" وإن الله إذا أحب "** فليس الشأن أن تحب الله إنما الشأن أن يحبك الله، وأهل البلاء هم أهل محبته. ***وفي الحديث:*** **"والله لن يلقي الله حبيبه في النار".** (صحيح الجامع: ٤٠٧)

من المعلوم أن طبيعة البشر الوقوع في الذنوب والزلل والخطأ، وهذا لا يسلم منه أحد إلا الأنبياء فهم معصومون. ***فقد أخرج ابن ماجه والترمذي بسند حسن عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال:*** **" كل ابن آدَمَ خطاءٌ وخيرُ الخطائينَ التوَّابُونَ ".**

وصدق القائل حيث قال: من ذا الذي ما ساء قط ... ومن له الحسنى فقط

الجواب: لا أحد.

١- قال المباركفوري-رحمه الله-:" إن عظم الجزاء": أي كثرته " مع عظم البلاء" فمن ابتلاه الله فجزاؤه أعظم. " ابتلاهم" أي اختبرهم بالمحن والرزايا." فمن رضي" بما ابتلاه به " فله الرضا" منه تعالى وجزيل الثواب. " ومن سخط " أي: كره بلاء الله وفزع ولم يرض بقضائه " فله السخط" منه تعالى وأليم العذاب. (تحفة الأحوذي: ٧٧/٧)

فمن أراد الله به خيرًا عجل له العقوبة في الدنيا، فيبتليه في جسده أو ماله أو ولده أو في أهله؛ حتى يطهره من الذنوب فيوافيه يوم القيامة ولا ذنب له، وهذا هو عين الخير.

فقد أخرج الترمذي من حديث أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" إذا أراد الله بعبده الخير عجّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشرّ أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة ".**

(صحيح الجامع:٣٠٨)

قال الطيبي -رحمه الله- كما في شرح المشكاة (٣/٣١٠): قوله ﷺ:" **وإذا أراد الله بعبده الشرّ أمسك عنه بذنبه**" أي: أمسكه عنه لما يستحقه بسبب ذنبه من العقوبة، والمعنى: لا يجازيه بذنبه حتى يجيء في الآخرة متوفر الذنوب وافيها، فيستوفي حقه من العقاب. اهـ.

فمن لم يبتل في هذه الحياة الدنيا بأي نوع من أنواع البلاء فهو على خطر كبير.

فقد أخرج الإمام أحمد والبخاري في الأدب المفرد بسند حسن عن أبي هريرة ﷺ قال: **دخل أعرابيٌ على النبي ﷺ فقال النبي ﷺ:" أخذتْك أمُّ مِلْدَم قط؟ قال: وما أمُّ مِلْدَم؟ قال:" حرّ يكون بين الجلد واللحم، قال: ما وجدتُ هذا قط، قال: فهل أخذك هذا الصداع؟ قال: وما هذا الصداع؟ قال:" عرق يضرب على الإنسان في رأسه، قال: ما وجدت هذا قط، فلما ولّى، قال النبي ﷺ:" من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا ".** **(صحيح الأدب المفرد) (وقال أحمد شاكر إسناده صحيح).**

تنبيه:

وليس معنى هذا الحديث أن كل من لم يبتل يكون من أهل النار ولابد، ولكن النبي ﷺ أراد إعلام أمته أن المرء لا يكاد يتعرى عن الذنوب والمعاصي، وأن النار تجب له بذلك إن لم يتفضل الله ﷻ عليه بالعفو والمغفرة، وقد جعل الله الأمراض والمصائب وسائر أصناف البلاء سببًا للعفو والمغفرة.

قال ابن حبان -رحمه الله- كما في صحيحه:٧/١٧٩" في شرح قوله ﷺ: **" من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا"** لفظة إخبار عن شيء مرادها الزجر عن الركون إلى ذلك الشيء وقلّة الصبر على ضدّه، وذلك أن الله تعالى جعل العلل في هذه الدنيا والغموم والأحزانَ سبب تكفير الخطايا عن المسلمين، فأراد ﷺ إعلام أمته أن المرء لا يكاد يتعرى عن مقارفة ما نهى الله عنه في أيامه ولياليه، وإيجاب النار له بذلك إن لم يتفضل عليه بالعفو، فكأن كل إنسان مرتهن بما كسبت يداه، والعلل تكفر بعضها عنه في هذه الدنيا، لا أنّ من عوفي في هذه الدنيا يكون من أهل النار". اهـ

- ومن المعلوم كما مر بنا أن العبد يبتلى في هذه الحياة الدنيا بسبب ذنوبه، وما اقترفته يداه.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ (الشورى: ٣٠)

وأخرج الترمذي والطبراني في المعجم الصغير من حديث البرّاء ﷺ أن النبي ﷺ قال: " ما اختلج[1] عرقٌ ولا عينٌ إلا بذنبٍ، وما يدفعُ اللهُ عنه أكثر". - *وفي رواية:* " وما يعفو الله عنه أكثر".

(صحيح الجامع: ٥٥٢١)

قال عليُّ بن أبي طالب ﷺ: ما نزل بلاءٌ إلا بذنب، ولا رُفع إلا بتوبة.

فما زالت عن العبد نعمة، ولا حلت به نقمة، وتحول الله له من حال العافية إلى حال البلاء إلا بكسبه وما صنعت يداه.

وقال زيادُ بن الربيع: " قلت لأُبيِّ بن كعب آيةٌ في كتاب الله قد أخذتني: قال: ما هي؟ قلت: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ (النساء: ١٢٣) قال: ما كنتُ أراك إلا أفقهُ مما أرى، إنَّ المؤمن لا تصيبه عَثرةُ قدم ولا اختلاج عِرق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر".

فإذا أراد الله بعبده خيرًا عجل له العقوبة وابتلاه في الدنيا حتى يوافيه يوم القيامة ولا ذنب عليه، لأن المراد بتكفير الذنب: ستره أو محو أثره المترتب عليه من استحقاق العقوبة.

قال ابن عبد البر-رحمه الله- كما في" التمهيد:٢٣/٢٦": " الذنوب تكفرها المصائب والآلام والأمراض والأسقام وهذا أمر مجمع عليه ". اهـ

وكان بعض السلف يقول: " لولا مصائب الدنيا لوردنا القيامة مفاليس ".

فالابتلاءات يكفر الله بها الذنوب ويمحو السيئات، والأدلة على ذلك كثيرة ومنها:

١- ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ:

" ما من مصيبة[2] تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه[3] حتى الشوكة يشاكها ".

٢- أخرج البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" ما من مسلمٍ يُصيبُهُ أذى شوكةٍ فما فوقها إلا حطَّ اللهُ عزَّ وجلَّ عنهُ خطاياهُ كما تَحُتُّ الشجرةُ ورقها ".

٣- وأخرج البخاري ومسلم من حديث عائشة-رضي الله عنها- عن النبي ﷺ قال: " ما من مصيبةٍ تُصيب المسلمَ إلا كفر الله بها عنه حتى الشوكةَ يُشَاكُها ".

١- الاختلاج: الحركة والاضطراب. (النهاية: ٢/٦٠)

٢- المصيبة: ما نزل بالإنسان من مكروه.

٣- "إلا كفر الله بها عنه" أي: يكون ذلك عقوبة بسبب ما صدر منه من المعصية، ويكون ذلك سببًا لمغفرة ذنبه، فبذلك يحصل الأمران معًا حصول الثواب ورفع العقاب.

٤- وأخرج البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " ما يُصيب المسلم من نصب[١]، ولا وصب[٢]، ولا هم[٣]، ولا حَزَن[٤]، ولا أذى، ولا غم[٥]، حتى الشوكة يشاكها إلا كفّر اللهُ من خطاياه".

٥- وأخرج الترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة، في نفسه وولده وماله، حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة ".

(صحيح الجامع:٥٨١٥) (الصحيحة:٢٢٨٠)

٦- وأخرج الترمذي وابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:"... ما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض، وما عليه خطيئة ". (صحيح الجامع:٩٩٢)

٧- وأخرج الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن أبي الدنيا عن أمِّ سلمة-رضي الله عنها- قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " ما ابتلى اللهُ عبدًا ببلاءٍ وهو على طريقةٍ يَكْرَهُهَا، إلا جعل الله ذلك البلاء كفارةً وطُهُورًا، مَا لَمْ يُنْزِلْ ما أصَابَهُ [من البلاء] بغير اللهِ، أو يَدَعُو غَيْرِ اللهِ في كَشْفِهِ ".

(الصحيحة: ٢٥٠٠) (صحيح الترغيب والترهيب:٣٤٠١)

٨- وأخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: " لما نزلت ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[٦] بلغت من المسلمين مبلغا شديدًا، فقال رسول الله ﷺ:" قاربوا وسددوا ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة، حتى النكبة ينكبها [٧]، أو الشوكة يشاكها ".

يقول أبو بكر الصديق ﷺ:" يكفر الله عن المسلم حتى النكبة وانقطاع شسعه، والبضاعة يضعها في كم قميصه فيفقدها فيجدها في ضبنه[٨]".

فسبحان الملك!! كل شيء من الأوجاع والهموم والأحزان يؤجر عليها المسلم، حتى مجرد الفزع على فقدان المتاع حتى يجده.

يقول ابن القيم-رحمه الله- كما في" مدارج السالكين": لأهل الذنوب ثلاثة أنهار عظام يتطهرون بها في الدنيا، فإن لم تفِ بطهرهم، طهروا في نهر الجحيم يوم القيامة: نهر التوبة النصوح، ونهر الحسنات المستغرقة للأوزار المحيطة بها، ونهر المصائب العظيمة المكفرة. فإذا أراد الله بعبده خيرًا أدخله أحد هذه الأنهار الثلاثة، فورد القيامة طيبًا طاهرًا، فلم يحتج إلى التطهير الرابع (نهر الجحيم).

١- نصب: تعب (النهاية:٥/٦٢)
٢- وَصَب: وجع أو مرض، وقيل: هو الوجع اللازم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ (الصافات:٩) أي: لازم ثابت. (ترتيب القاموس:٤/٦١٨)
٣- الهم: يكون على مكروه يتوقع في المستقبل يهتم به القلب.
٤- الحزن: على مكروه ماض من فوت محبوب أو حصول مكروه إذا تذكره أحدث له حزنًا.
٥- الغم: يكون على مكروه حاصل في الحال يوجب لصاحبه الغم. (شفاء العليل ص: ٥٧٣)
٦- سورة النساء:١٢٣.
٧- حتى النكبة ينكبها: هي مثل العثرة برجله، وربما جرحت إصبعه، وأصل النكب: الكب والقلب.
٨- أي: تحت إبطه.

وقال أيضا ابن القيم-رحمه الله- كما في" زاد المعاد": " الإنسان الخبيث يتفجر من قلبه الخبث على لسانه وجوارحه، والإنسان الطيب يتفجر من قلبه الطيب على لسانه وجوارحه. وقد يكون في الشخص مادتان فأيها غلب عليه كان أهلًا لها، فإذا أراد الله به خيرًا طهره من المادة الخبيثة قبل الموافاة، فيوافيه يوم القيامة مطهرًا فلا يحتاج إلى تطهيره بالنار. فيطهره منها بما يوفقه له من التوبة النصوح والحسنات الماحيات والمصائب المكفرات حتى يلقى الله وما عليه خطيئة. ويمسك عن الآخر مواد التطهير فيلقاه يوم القيامة بمادة خبيثة، ومادة طيبة وحكمته تعالى تأبى أن يجاوره أحد في داره بخباثته فيدخله النار طهرة له. فإذا خلصت سبيكة إيمانه من الخبث صلح حينئذ لجواره ومساكنة الطيبين من عباده ". اهـ.

الابتلاء سبب لتحصيل الأجر والثواب:

١- *فقد أخرج الترمذي بسند حسن عن جابر ﷺ أن النبي ﷺ قال:* **" ليَوَدَّنَّ أهل العافية يوم القيامة، أن جلودهم قُرِضَتْ بالمقاريض مما يرون من ثواب أهل البلاء ".** (الصحيحة: ٢٢٠٦)

- *وفي رواية أخرى:* **"يود أهل العافية يوم القيامة حين يُعطى أهلُ البلاءِ الثواب لو أن جلودهم كانت قُرِضَتْ في الدنيا بالمقاريض ".**

٢- *وأخرج البزار من حديث أبي هريرة ﷺ قال:* **جاءت امرأة بها لمم إلى رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله: ادع الله لي أن يشفيني قال:"إن شئت دعوت الله أن يشفيك وإن شئت فاصبري، ولا حساب عليك، قالت: بل أصبر ولا حساب علي".**

ويروى أن بعض العابدات (وهي امرأة فتح الموصلي) عثرت فانقطع أصبعها فضحكت فقيل لها: أتضحكين وقد انقطع أصبعك؟!! قالت: أخاطبك على قدر عقلك، حلاوة أجرها أَنْستني مرارة قطعها.

وأخرج البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **" من يرد الله به خيرًا يصيب منه ".**

نقل الحافظ -رحمه الله- في" الفتح:١٠/١١٣": عن أبي عبيد الهروي-رحمه الله- أنه قال في الحديث السابق: معناه يبتليه بالمصائب ليثيبه عليها.

وكان شقيق البلخي -رحمه الله- يقول: من يرى ثواب الشدة، لا يشتهي الخروج منها.

- **وليعلم المبتلى أنه كلما ازداد البلاء ازداد الأجر.**

فقد أخرج الإمام أحمد والترمذي من حديث محمود بن لبيدﷺ أن النبي ﷺ قال: **" إن عظم الجزاء مع عظم البلاء...".** (صحيح الجامع:٢١١٠)

الابتلاء سبب لرفع الدرجات:

قد يكون عمل الرجل لا يبلغه الدرجة التي أعدها الله له في الجنة، فيبتليه ليرفع درجته في الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

١- ***فقد أخرج ابن حبان والحاكم عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال:*** " إن الرجل ليكون له المنزلة عند الله، فما يبلغها بعملٍ، فلا يزالُ الله يبتليه بما يكره حتى يبلغه إياها ".

(صحيح الجامع: ١٦٢٥) (الصحيحة: ٢٥٩٩)

٢- ***وأخرج الإمام أحمد وأبو داود والطبراني في الكبير والأوسط عن محمد بن خالد عن أبيه عن جده وكانت له صحبةٌ قال: قال رسول الله ﷺ:*** " إن العبد إذا سبقتْ له من الله منزلةٌ فلم يَبْلُغْها بعمله، ابتلاهُ الله في جسده، أو ماله، أو في ولدِهِ، ثم صَبَّرَهُ على ذلك، حتى يُبْلغَهُ المنزلَةَ التي سبقتْ لهُ من الله تعالى ". (صحيح أبي داود: ٢٦٤٩)

٤- ***وأخرج الإمام مسلم عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ:*** " لا تُصيب المؤمنَ شوكةٌ فما فوقها إلا نَقَص الله بها من خطيئته، ***-وفي رواية:*** " إلا رفعه الله بها درجةً وحط عنه بها خطيئة ".

٥- ***وأخرج الإمام أحمد وابن حبان بسند صحيح عن عائشة - رضي الله عنها -:*** "أن رسول الله ﷺ طرَقَهُ وجعٌ، فجعل يشتكي ويتقلب على فراشه، فقالت له عائشة: لو صنع هذا بعضنا لوَجَدْتَ[1] عليه، فقال النبي ﷺ إن الصالحين يُشدّد عليهم، وإنه لا يصيب مؤمنًا نكبةٌ من شوكةٍ فما فوق ذلك إلا حطت عنه بها خطيئة، ورفع له بها درجة ". (صحيح الجامع: ١٦٦٠) (الصحيحة: ١٦١٠)

٦- ***وأخرج الإمام مسلم عن الأسود قال:*** " دخل شبابٌ من قريش على عائشة -رضي الله عنها- وهي بمنى وهم يضحكون، فقالت: ما يُضحِكُكم؟ قالوا: فلانٌ خَرَّ على طُنُبِ[2] فُسطاطٍ[3]، وكادتْ عُنقُهُ أو عَينُهُ أن تذهب، فقالت: لا تضحكوا، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ قال: ما من مسلم يُشاكُ بشَوكَةٍ فما فوقها إلا كُتبَت لهُ بها درجةً ومحيت عنهُ بها خطيئةٌ ".

في هذه الأحاديث بشارة عظيمة للمسلمين، فإنه قلما ينفك الواحد منهم ساعة من شيء من هذه الأمور، وفيه تكفير الخطايا بالأمراض والأسقام ومصائب الدنيا وهمومها وإن قلت مشاقها. وفيه رفع الدرجات بهذه الأمور وزيادة الحسنات، وهذا هو الصحيح الذي عليه جماهير العلماء.

---

١ ـ وَجَدْتَ: حزنت

٢ ـ الطنب: هو الحبل الذي يشد به الفسطاط.

٣ ـ الفسطاط: بيت من الشعر، وهو الخباء ونحوه.

الابتلاء سبيل لحصول رضا الله - تعالى-:

فكما أن الابتلاء تمحيص للذنوب والسيئات، وبلوغ الدرجات العالية في الجنات، وأعلى من ذلك كله حصول رضا الله تعالى، الذي هو أفضل من الجنة ونعميها المقيم.

كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (سورة التوبة:٧٢)

وأخرج البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" إن الله ﷻ يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا! فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: وأي شيءٍ أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا ".**

فكما أن المبتلى رضي بالبلاء فإن الله تعالى يرضى عنه.

وأخرج الترمذي من حديث أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط ".**

يقول ابن القيم –رحمه الله –: إن ابتلاء المؤمن كالدواء له يستخرج منه الأدواء (الأمراض) التي لو بقيت فيه أهلكته أو نقصت ثوابه، وأنزلت درجته فيستخرج الابتلاء والامتحان منه تلك الأدواء، ويستعد به لتمام الأجر وعلو المنزلة، ومعلوم أن وجود هذا خير للمؤمن من عدمه. اهـ.

وقال الشيخ الألباني–رحمه الله–: وهذا الحديث يدل على أمر زائد على ما سبق، وهو أن البلاء إنما يكون خيرًا، وأن صاحبه يكون محبوبًا عند الله تعالى، إذا صبر على بلاء الله تعالى، ورضي بقضاء الله ﷻ.اهـ.

الابتلاء سبب لدخول الجنة:

أخرج الإمام مسلم من حديث أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" حُفت الجنة بالمكارة، وحُفت النار بالشهوات ".**

جاء في" فتح الباري:١١/ ٣٢٠": والمكاره: هي كل ما تكرهه النفس ويشق عليها، وهذا يتناول مجاهدة النفس في القيام بالطاعات واجتناب المعاصي، والصبر على المصائب والتسليم لأمر الله فيها.

ولهذا كان جزاء من فقد بصره ثم صبر على هذا المكروه وهذا البلاء الذي تكرهه النفس، كان جزاؤه الجنة.

- ***فقد أخرج البخاري عن أنس بن مالك ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:*** **" إن الله تعالى قال: إذا ابتليت عبدي بِحَبِيبَتَيْه[1] فَصَبَرَ، عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الجَنَّةَ ".**

- ***وأخرجه ابن حبان وأبو يعلى بسند صحيح عن ابن عباس-رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ:*** **" يقول الله تعالى: إذا أخذتُ كَرِيمَتَي عبدي فَصَبَرَ واحتسب[2] لم أرض له ثوابًا دُونَ الجنةَ ".**

يا له من جزاء عظيم وأجر كبير ولا يكون إلا لمن صبر على هذا البلاء الكبير والمصيبة العظيمة، فيا من فقدت نعمة البصر! احتسب الأجر عند الله، واحمده سبحانه أن أخذ منك نعمة البصر وأعطاك بدلًا منها جنة عرضها السماوات والأرض، واحمده كذلك على أنه لم يأخذ منك نعمة البصيرة.

- ***وأخرج الإمام أحمد والنسائي عن أبي هريرة ﷺ قال: قال ﷺ:*** **" ما من مسلمَيْنِ يموت لهما ثلاثةُ أولادٍ، لم يبلغوا الحِنْثَ[3]، إلا أدخلهما الله بفضل رحمته إياهم الجنة، يقال لهم: ادخلوا الجنة، فيقولون: حتى يدخلَ أبوانا: فيقالُ: ادخلوا الجنَّةَ أنتم وأبواكم ".** (صحيح الجامع: ٥٧٨٠)

- ***وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال:*** **" يقول الله عز وجل: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيَّه[4] من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة ".**

قال الحافظ في الفتح: ١١/٢٤٧": "واستدل بهذا الحديث ابن بطال على أن من مات له ولدٌ واحد يلتحق بمن مات له ثلاثة وكذا اثنان ". اهـ

- ***وأخرج الإمام أحمد عن معاوية بن قرة بن إياسٍ عن أبيه:*** **" أن رجلًا كان يأتي النبي ﷺ ومعه ابن له، فقال النبي ﷺ: أتحبُّهُ؟ فقال: نعم يا رسول الله، أحبك الله كما أحبه. ففقده النبي ﷺ فقال: ما فعل فلان ابن فلان؟ فقالوا: يا رسول الله مات، فقال النبي ﷺ لأبيه: ألا تحب ألا تأتي بابًا من أبواب الجنة إلا وجدته عليه ينتظرك؟ فقال رجل: يا رسول الله، أَلَهُ خاصةً أمْ لكلنا؟ فقال ﷺ:" بل لكُلِّكُم ".**

- ***وأخرج البخاري ومسلم ن عطاء بن رياح قال: قال لي ابن عباس - رضي الله عنهما-:***

ألا أريك امرأةً من أهل الجنة؟ فقلت: بلى، فقال: هذه المرأة السوداء. أتت النبي ﷺ فقالت: أُصرعُ[5] وإني أتكشَّف فادع الله تعالى لي، فقال النبي ﷺ: إن شئت صبرتِ ولك الجنة، وإن شئت دعوتُ الله تعالى أن يعافيك"، فقالت: أصبر، ثم قالت: إني أتكشَّف فادع الله تعالى لي أن لا أتكشف، فدعا لها ".

فهذه المرأة صابرة عاقلة، لما بزغ لها فجر الجزاء الباقي هان عليها ظلام البلاء الفاني، فلا عيش إلا في جنات عدن ولا مستراح إلا في ظل طوبى، فصبرًا على اللأواء والموعد الجنة.

١- بحبيبتيه: أي عينيه، وتسميتهما بذلك لأنهما أحب أعضاء الإنسان إليه.
٢- فصبر واحتسب: أي حبس نفسه عن الجزع والشكوى، وادخر ثواب مصيبته عند الله.
٣- الحنث: الإثم والذنب، والمعني: أنهم لم يبلغوا من العمر سنًا تكتب عليهم فيه الذنوب.
٤- يقول ابن الأثير: الصفي: الخليل والصديق يختاره الإنسان ويصطفيه.
٥- أُصْرع: والصرع هو الطرح بالأرض، والصرع علة معروفة.

الأدب العشرون: الدعاء لكشف الهموم والغموم:

البلاء نازل بالعبد بقدر من الله – سبحانه وتعالى– كما تقدّم بيانه، وهو القادر على رفعه، فمنه البلاء ومنه العافية –جل وعلا– فعلى المبتلى أن يتوجه بكُليته إلى من بيده رفع البلاء.

فعليك أخي المبتلى بالدعاء والتضرع إلى الله ﷻ في أن يرفع ما نزل بك، وهو سبحانه قريب مجيب، يحب من عباده أن يسألوه، ويثيبهم على سؤالهم بالإجابة وبالثواب العظيم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾

(سورة البقرة:١٨٦)

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر:٦٠)

فبين الله تعالى في هذه الآية أن الدعاء عبادة وزلفى له سبحانه، والنبي ﷺ يؤكد على هذا فيقول:

" **الدعاء هو العبادة** ". (رواه الترمذي وصححه الألباني في صحيح الترمذي:٢٦٨٥)

وقال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٣،٨٤)

وقال سبحانه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ (النمل:٦٢)

ولقد ذم الله تعالى من لم يتضرع إليه في وقت البلاء، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ (المؤمنون:٧١)

وجاء في السنة أحاديث كثيرة تدلّ على أن الله تعالى قريب مُجيب، حيي كريم، يجيب دعاء الداعين، وينفِّس كرب المكروبين. ويرفع البلاء عن المبتلين، لكن هناك مقصدًا آخر من الدعاء هو الخضوع والتذلل لله تعالى، فهو عبادة وترك الدعاء من جنس ترك الأعمال الصالحة اتكالًا على ما قُدِّرَ، فيلزم ترك العمل جُملة.

واعلم أخي المبتلى أن الدعاء سبب لدفع البلاء قبل نزوله، ورفعه بعد نزوله.

فقد أخرج الترمذي والحاكم عن ابن عمر–رضي الله عنهما–قال: قال رسول الله ﷺ: " **الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، فعليكم–عباد الله– بالدعاء** ".

(حسنه الألباني في صحيح الجامع:٣٤٠٩) (وصحيح الترمذي: ٢٨١٣)

ومما يدل على أن الدعاء يرفع الوباء والبلاء:

ما أخرجه البخاري ومسلم عن عائشة –رضي الله عنها– قالت: قال النبي ﷺ: **" اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشد، وانقل حُمَّاها إلى الجحفة، اللهم بارك لنا في مُدِّنا وصاعنا [1] ".**

قال الخطابي وغيره: " كان ساكنو الجحفة في ذلك الوقت يهودًا ".

وقال ابن القيم–رحمه الله– كما في" كتابه الجواب الكافي ص:١٧": والدعاء من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء، يدفعه ويعالجه، ويمنع نزوله، ويرفعه أو يخففه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن وله مع البلاء ثلاث مقامات: **أحدها:** أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه. **الثاني:** أن يكون أضعف من البلاء، فيقوى عليه البلاء، فيصاب به العبد، ولكن قد يُخفّفه وإن كان ضعيفًا. **الثالث:** أنهما يتقاومان ويمنع كل واحد منهما صاحبه.

وأخرج الحاكم بسند حسن عن عائشة–رضي الله عنها–عن النبي ﷺ أنه قال: **" لا يُغني حذرٌ من قدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، وإن البلاء لينزلُ فيتلقاهُ الدعاء فيعتلجان[2] إلى يوم القيامة ".** (صحيح الجامع: ٧٧٣٩)

فعليك أخي الكريم بالإكثار من الدعاء والإلحاح على الله في ذلك، وكن على يقين بالإجابة، فإنّ هذا أحرى للقبول، ***كما قال*** ﷺ:**" ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافلٍ لاهٍ ".** (رواه الترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ وحسنه الألباني في صحيح الجامع:٢٤٥)

وعليك بالمداومة على الدعاء مهما تأخرت الإجابة، فليس للعبد ملجأ ولا مفرّ إلا إلى مولاه ﷻ.

قال السري السقطي–رحمه الله–: كن مثل الصبي إذا اشتهى على أبويه شهوة فلم يمكناه قعد يبكي لهما، فكن أنت مثله، فإذا سألت ربّك ولم يعطك فاقعد فابك له. (شعب الإيمان للبيهقي: ٢٤٦/٣)

وقال أبو الدرداء ﷺ: **من يكثر قرع الباب يوشك أن يفتح له، ومن يكثر الدعاء يوشك أن يستجاب له" .** (المصدر السابق)

وقال الثعالبي المفسِّر:

وإني لأدعو الله والأمر ضيّق ... عليّ فما ينفكّ أن يتفرّجا

وربّ فتى سُدّت عليه وجوهه ... أصاب له في دعوة الله مخرجا

(طبقات السبكي:٥٨/٩)

١ـ الصاع: أربعة أمداد.

٢ ـ يعتلجان: يتصادمان ويتدافعان.

وهناك جملة من الأدعية جعلها الله سبباً في كشف الهموم والغموم نذكرها لأهميتها ولإتمام الفائدة:

يا أيها المكروب خاصة، يا أيها الناس عامة، ادعوا ربكم تضرعًا وخفية، ففيه المطمع وإليه المفزع، لا إله إلا هو من لكم غيره يجبر كسركم؟ من لكم غيره يبدد أحزانكم؟ من لكم غيره يؤنسكم في وحشتكم؟ من لكم إذا دفعتم عن الأبواب إلا بابه؟ من لكم غيره أعز مطلوب وأشرف مرغوب؟ فيا من دخلت عليه الهموم والغموم والأحزان عليه من كل باب، وأتته من كل طريق، ارفعوا أكف الضراعة، وعليكم بهذه الأدعية والتي يكشف الله بها الهموم ويزيل بها الغموم والأحزان، **ومنها:**

١- ما أخرجه البخاري ومسلم عن ابن عباس-رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: **" لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله ربّ العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات وربّ الأرض، رب العرش الكريم ".** ***- وفي رواية عند مسلم:*** **" كان إذا أحزبه أمر قال ذلك ".**

قال النووي -رحمه الله- كما في الأذكار، وقوله: **" حزبه أمر"** أي: نزل به أمر مهم، أو أصابه غم.

وقال في موضع آخر تعليقًا على هذا الحديث: " هو حديث جليل ينبغي الاعتناء به والإكثار منه عند الكرب والأمور العظيمة. قال الطبري: كان السلف يدعون به، ويسمونه دعاء الكرب.

(شرح صحيح مسلم:١٧/٥٠)

٢- وأخرج الترمذي عن أنس ﷺ قال: **" كان النبي ﷺ إذا كَرَبه أمرٌ قال: يا حيُّ يا قيُّومُ برحمتك أستغيث".** (صحيح الجامع: ٤٧٧٧) (صحيح سنن الترمذي: ٢٧٩٦)

وفي مستدرك الحاكم عن ابن مسعود ﷺ بلفظ: **" كان إذا نزل به همٌّ أو غمٌّ قال: يا حيّ يا قيّوم برحمتك أستغيث ".**

٣- وأخرج الإمام أحمد والنسائي في عمل اليوم والليلة عن عبد الله بن جعفر عن عليّ-رضي الله عنهما- قال: **" لقنني رسول الله ﷺ هؤلاء الكلمات، وأمرني إن نزل بي كَرْب أو شدّة أن أقولها: لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحانه تبارك الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين ".**

وكان عبد الله بن جعفر يلقّنها، وينفث بها على الموعوك (أي المحموم) ويعلّمها المغتربة من بناته (أي التي تزوّج إلى غير أقاربها) (عمل اليوم والليلة للنسائي ص:٤٠٦) (الأذكار ص:١٦٥)

٤- وأخرج أبو داود وابن ماجه عن أسماء بنت عُميس-رضي الله عنها- قالت: قال لي رسول الله ﷺ: **" ألا أعلمكِ كلماتٍ تقولينهنَّ عند الكَرْب؟ اللهُ اللهُ ربِّي، لا أشرك به شيئًا ".** (صحيح الجامع: ٢٦٢٣)

- وفي رواية: **" من أصابه همٌّ، أو غمٌّ، أو سُقمٌ، أو شدَّةٌ، فقال: اللهُ ربي، لا شريك له، كشف ذلك عنه ".** (هذا اللفظ للطبراني في الكبير وحسنه الألباني في صحيح الجامع: ٦٠٤٠)

٥- وأخرج أبو داود وأحمد عن أبي بكرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **" دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت ".** (صحيح الجامع: ٣٣٨٨)

٦- وأخرج ابن أبي الدنيا في كتابه "الفرج" عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ قال: " كلمات الفرج: لا إله إلا الله الحليم الكريم، لا إله إلا الله العلي العظيم، لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب العرش الكريم ". (الصحيحة:٢٠٤٥) (صحيح الجامع:٤٥٧١)

٧. وأخرج البخاري ومسلم عن أنس ﷺ قال: " كنت أخدم رسول الله ﷺ، فكنت أسمعه كثيرًا يقول: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضَلَع الدَّين وغلبة الرجال ".

٨- وأخرج البخاري عن ابن عباس-رضي الله عنهما- قال: " حسبنا الله ونعم الوكيل"، قالها إبراهيم حين أُلقي في النار، وقالها محمد حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران:١٧٣).

٩- وأخرج أحمد وابن حبان والحاكم عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " ما أصاب أحدًا قط همٌّ ولا حزنٌ فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أَمَتِك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سمّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاءَ حزني، وذهاب همّي، إلا أذهب الله همّه وحزنه، وأبدله مكانه فرجًا - وفي رواية: " فرحًا- قال، فقيل: يا رسول الله، ألا نتعلّمها؟ فقال: بلى، ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها ". (السلسلة الصحيحة: ١٩٩)

أيها المبتلى.....إذا كثرت الأحزان والهموم وغلب على عقلك ولم تذكر شيئًا من هذه الأدعية، فلا تنسَ أن تدعو بدعوة ذي النون **يونس** عليه السلام ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٧)، حتى يكشف الله همك وغمك، ويفرج كربك.

فقد أخرج الإمام أحمد والترمذي عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " دعوة ذي النّون[1] إذ دعا وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قطّ إلا استجاب الله له ". (صحيح الجامع: ٣٣٨٣) (صحيح الترمذي:٣٠٥٢)

وقد قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(٨٧)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنبياء:٨٧، ٨٨)

قال القرطبي-رحمه الله- في تفسير هذه الآية: وفي الخبر في هذه الآية شرط الله لمن دعاه أن يجيبه كما أجابه وينجيه كما أنجاه، وهو قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾. (الجامع لأحكام القرآن:١١ /٣٣٤)

وقال ابن كثير-رحمه الله-: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: إذا كانوا في الشدائد ودعونا منيبين إلينا، ولاسيما إذا دعوا بهذا الدعاء في حال البلاء، فقد جاء الترغيب في الدعاء بها عن سيد الأنبياء ".
(تفسير ابن كثير: ٥/٣٣٦)

[1] - و(النون) يعني: الحوت. و(ذو النون) يونس بن مَتَّى-عليه السلام. (تفسير ابن كثير:٥/ ٣٦٠)

حقائق عن الابتلاء يجب الوقوف عليها

الحقيقة الأولى: أن المؤمن في الدنيا دائما في بلاء إلى أن يلقى الله -عز وجل-:

ففي الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد عن البراء بن عازب ﷺ: أن النبي ﷺ قال عن المؤمن- عندما ينزل في القبر- **" فيأتيه ملكان شديدا الانتهار فينتهرانه ويجلسانه فيقولان له: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن..... ".** الحديث

وهذا دليل على أن المؤمن دائمًا معرض للفتن والاختبارات والابتلاءات إلى أن يموت.

وصدق أبو فراس حيث قال:

المرءُ رهْنُ مصائبٍ لا تنقضي ... حتى يُوسَّدَ جِسْمُهُ في رَمْسِهِ

فَمُؤجلٌ يَلْقى الرَّدى في غَيْره ... وَمُعَجَّلٌ يَلْقى الرَّدى في نَفْسِهِ

(أدب الدنيا والدين ص:٤٦٣)

وأخرج البخاري عن أبى قتادة بن ربعي الأنصاري ﷺ: **أنه كان يحدث أن رسول الله ﷺ مر عليه بجنازة فقال: "مستريح ومستراح منه " قالوا: يا رسول الله، ما المستريح والمستراح منه؟ قال: " العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب ".**

وموت المؤمن راحة له من غموم دار الدنيا وهمومها وآلامها كما في الحديث:

" إذا حُضِرَ المؤمن أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون: اخرجي راضية مرضيًا عنك إلى روح الله وريحان ورب غير غضبان، فتخرج كأطيب ريح المسك حتى إنه ليناوله بعضهم بعضًا حتى يأتون به باب السماء فيقولون: ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض، فيأتون به أرواح المؤمنين فلهم أشد فرحًا به من أحدكم بغائبه يقدم عليه فيسألونه ماذا فعل فلان؟ ماذا فعل فلان؟ فيقولون: دعوه فإنه كان في غم الدنيا.

وصدق النبي ﷺ حيث قال كما في صحيح مسلم: **" الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر".**

فإذا علم المؤمن هذه الحقيقة يهون عليه كثيرًا من وقع المصاب وألم الغم ونكد الهم؛ لأنه يعلم أنه أمر لابد منه فهو من طبيعة هذه الحياة.

وأخرج الإمام مسلم عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" مثل المؤمن كمثل الزرع، لا تزال الرياح تُفِيئُه، ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرْز[1] لا تهتز حتى تُسْتَحْصَد ".**

١ـ الأَرْز: بفتح الهمزة وإسكان الراء وبعدها زاي، وهو شجر معروف يشبه شجر الصنوبر، وهو شجر معتدل صلب لا يحركه هبوب الريح. وقيل: هو شجر الصنوبر (انظر: النهاية:٣٨/١)، (شرح صحيح مسلم للنووي:١٥٧/١٧)، (الفتح: ١٠٧/١٠).

لقد خلق الله الحياة الدنيا على طبيعة اختلطت فيها اللذائذ بالآلام، والمحاب بالمكاره، فهيهات أن ترى فيها لذة لا يشوبها ألم، أو صحة لا يكدرها سقم، أو سرورًا لا ينغصه حزن، أو راحة لا يخالطها تعب، أو اجتماعًا لا يعقبه افتراق، أو أمانًا لا يلحقه خوف، إن هذا ينافي طبيعة الحياة، ودور الإنسان فيها، وهذا ما أدركه الحكماء والأدباء والشعراء من قديم، فنطقت به ألسنتهم وأقلامهم شعرًا ونثرًا، قيل لعليّ بن أبي طالب ﷺ: صف لنا الدنيا، فقال: ماذا أصف لك من دار أولها بكاء، وأوسطها عناء، وآخرها فناء؟

وروى الحافظ أبو عبد الله الحاكم في تاريخه[1] عن سعيد بن المسيب-رحمه الله- أنه قال: دخلنا مقابر المدينة مع عليٍّ بن أبي طالب ﷺ فقام على قبر فاطمة -عليها السلام- وانصرف الناس، فقال:

لكل اجتماع من خليلين فرقة ... وإن بقائي بعدكم لقليل

وإن افتقادي واحدًا بعد واحد ... دليل على ألا يدوم خليل

أرى علل الدنيا عليّ كثيرة ... وصاحبها حتى الممات عليل

الحقيقة الثانية: أن الإنسان في هذه الحياة الدنيا مسافر والسفر كله مشقة:

قال الإمام ابن القيم – رحمه الله – كما في الفوائد ص:٢٧٠: الناس منذ خلقوا لم يزالوا مسافرين، وليس لهم حطّ عن رحالهم إلا في الجنة أو النار، والعاقل يعلم أن السفر مبنيّ على المشقة وركوب الأخطار. ومن المحال عادة أن يطلب فيه نعيم ولذة وراحة، إنما ذلك بعد انتهاء السفر، ومن المعلوم أن كل وطأة قدم أو كل آن من أنات السفر غير واقفة، ولا المكلف واقف، وقد ثبت أنه مسافر على الحال التي يجب أن يكون المسافر عليها من تهيئة الزاد الموصل، وإذا نزل أو نام أو استراح فعلى قدم الاستعداد للسير. اهـ.

قل متاع الدنيا قليل:

ومع هذا السفر الذي لا يخلو من المشقة، فإننا على يقين من أن الدنيا بكل ما فيها متاع زائل.

قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (سورة الحديد: ٢٠)

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (سورة النساء:٧٧)

فالاستمتاع بالدنيا قليل، ومتعتك بها قليل من قليل، وثواب الآخرة خير وأفضل لمن اتقى المعاصي وأقبل على الطاعات. فالله تعالى مثل لنا الدنيا كزرع أعجب الزراع نباته ينمو شيئًا فشيئًا حتى يكتمل ثم يهيج فتراه مصفرًا جاهزًا للحصاد فهو موقوت الأجل ينتهي عاجلًا ويبلغ أجله قريبًا ثم يكون حطامًا وينتهي شريط الحياة بمشهد الحطام ويا لها من نهاية بالحياة الدنيا جميعها.

١- لم يطبع بعد.

فما هي إلا حطام أو كظل وسراب.

روى الترمذي وابن ماجه بإسناد حسن أن رسول الله ﷺ قال: **" مالي وللدنيا؟ إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب قال في ظل شجرة ثم راح وتركها ".**

فالدنيا كما وصفها أحدهم فقال:

أحلام نوم، أو كظلٍّ زائل إن اللبيب بمثلها لا يخدع

يقول ابن القيم -رحمه الله-: أشبه الأشياء بالدنيا الظل، تحسب له حقيقة ثابتة وهو في تقلص وانقباض، تتبعه لتدركه فلا تلحقه، وأشبه الأشياء بالدنيا: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (سورة النور: ٣٩) وأشبه الأشياء بالدنيا المنام يرى فيه العبد ما يحب وما يكره، فإذا استيقظ علم أن ذلك لا حقيقة له.

قال بعضهم:

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها على أنهم فيها عراة وجُوَّعُ

أراها وإن كانت تحب فإنها سحابةُ صيفٍ عن قليل تقشع

فالمؤمن هو الذي يعلم أنه مسافر إلى الله، وأن كل ما هو من حطام الدنيا فسوف يتركه لا محالة. إما بالفقر أو بالموت، **كما قال تعالى:** ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (سورة الأنعام: ٩٤)

أخرج البخاري عن عبد الله بن عمر-رضي الله عنهما- قال: **أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، فقال:" كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل ".** (صحيح الجامع:٤٥٧٩).

وكان ابن عمر-رضي الله عنهما- يقول: **إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك.**

قال جماعة من العلماء في تفسير هذا الحديث:

لا تركن إلى الدنيا، ولا تتخذها وطنًا، ولا تحدث نفسك بطول البقاء فيها، ولا بالاعتناء بها، ولا تغتر بها، فإنها غرارة خداعة، ولا تتعلق إلا بما يتعلق به الغريب في غير وطنه، ولا تشتغل فيها إلا بما يشتغل به الغريب الذي يريد الذهاب إلى أهله، وبالله فاستعن.

وأخرج ابن ماجه والطبراني في الكبير والحاكم عن سهل بن سعد الساعدي ﷺ قال: **جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، دلني عل عمل إذا عملته أحبني الله، وأحبني الناس، فقال:" ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس ".** (صحيح الجامع:٩٢٢)

وأخرج الترمذي عن سهل بن سعد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة، ما سقى كافرًا منها شربة ماءٍ ".** (صحيح الجامع:٥٢٩٢)

وأخرج ابن ماجه عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" الدنيا ملعونة، ملعونٌ ما فيها إلا ذكر الله وما والاهُ، وعالمًا أو متعلمًا ".** (صحيح الجامع:٣٤١٤)

وأخرج الإمام مسلم و أحمد والترمذي عن عبد الله بن الشخير ﷺ قال: **أتيت رسول الله ﷺ وهو يقرأ: " ألهاكم التكاثر" قال: "يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟ ".** (صحيح الجامع:٨١٣٢).

وأخرج مسلم عن أبى سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون؟ فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء ".**

فالدنيا فانية زائلة، وكل ما فيها يتغير ويحول ويفنى ويزول، لأنها إلى الآخرة طريق وهي مزرعة للآخرة على التحقيق، إنها ألم يخفيه أمل، وأمل يحققه بإذن الله عمل، وعمل يقطعه الأجل، وعندها يجزى كل أمرئ بما فعل، إنها الدنيا كلما حلت أوحلت، وكلما كست أوكست، وكلما دنت أودنت، وكم من ملك رفعت له علامات، فلما علا مات.

هـي الأيـام لا يبقى عـزيـز ... وساعات السرور بها قليلة

إذا نشر الضياءَ عليكم نجمُ ... وأشرق فارتقب يومًا أفولـه

إن أضحكت قليلًا أبكت كثيرًا، وإن سرت يومًا أحزنت شهورًا، وإن متعت كثيرًا منعت طويلًا، لا يبقى لها حبور ولا يدوم فيها ثبور.

فلا بد أن نعلم بأن النعم زائرة وأنها لا محالة زائلة، وأن السرور بها إذا أقبلت مشوب بالحذر بفراقها إذا أدبرت، وأنها لا تفرح بإقبالها فرحًا حتى تعقب بفراقها ترحًا، فعلى قدر السرور يكون الحزن.

والمفروح به اليوم هو المحزون عليه غدًا، ومن بلغ غاية ما يحب فليتوقع غاية ما يكره، ومن علم أن كل نائبة إلى انقضاء حسن عزاؤه عند نزول البلاء ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾

(سورة الفتح:٢٣)

بل إن المؤمن يعلم أن الدنيا مزرعة للآخرة، وأن ما يزرعه هنا فسوف يحصده هناك، **ولذا قال تعالى:** ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ (سورة البقرة:١٩٧).

وقفة: حضر أحد الرؤساء صلاة الجمعة، وبه مرض لا يحتمل معه تطويل الخطبة، ثم صعد الخطيب المنبر، فقال: الحمد لله رب العالمين، وصلواته على أشرف الأنبياء والمرسلين، أما بعد: فإن الدنيا دار ممر، والآخرة دار مقر، فخذوا لمقركم من ممركم، ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسراركم وأخرجوا الدنيا من قلوبكم، قبل أن تخرج منها أبدانكم، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

فما أبلغ هذه الخطبة وأفصحها وأوجزها، فممر الدنيا والله قصير وأغنى الأغنياء فيها فقير، فعلى الإنسان أن يستيقظ من رقدة الغفلة وينتبه من السكرة، ويقلع حب الدنيا من قلبه، فإن العبد إذا أغمض عينه وتولى، تمنى الإقالة، فيقال له: كلا.

أخرج الطيالسي والبيهقي في الشعب بسند صحيح عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: **" قال لي جبريل: يا محمد عِشْ ما شئت فإنك ميِّت، وأحبِبْ من شئت فإنك مُفارقه، واعمل ما شئت، فإنك مُلاقيه".**

(صحيح الجامع:٤٣٥٥)

فحين يصل المؤمن إلى تلك الحقيقة الكبرى ويوقن أنه موقوف بين يدي الله – جل وعلا – في يوم مقداره خمسون ألف سنة، فإن الدنيا لو سجدت بين يديه لركضها برجليه طامعًا في ساعة واحدة يناجي فيها ربه لعل الله أن يكتب له بها النجاة من تلك النار التي أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت، وألف عام حتى احمرت. وألف عام حتى اسودت، فهي الآن سوداء قاتمة. فيعلم المؤمن أن كل نعيم دون الجنة سراب، وكل عذاب دون النار عافية. فمن بذل وسعه في التفكير التام، وعلم أن هذه الدار رحلة فجمع للسفر رَحْلَه. ويعلم أن مبدأ السفر من ظهور الآباء إلى بطون الأمهات، ثم إلى الدنيا، ثم إلى القبر، ثم إلى الحشر ثم إلى دار الإقامة الأبدية، فدار الإقامة هي دار السلام من جميع الآفات. وهي دار الخلود. وليعلم أن مقدار السير في الدنيا يسير ويقطع بالأنفاس، ويسير بالإنسان سير السفينة لا يحس بسيرها وهو جالس فيها، ***وكما قال الشاعر:***

إنما هذه الحياة متاع ... فالغويّ الشقيّ من يصطفيها

ما مضى فات والمؤمل غيب ... ولك الساعة التي أنت فيها

ولا بد له في سفره من زاد، ولا زاد إلى الآخرة إلا التقوى، فلا بد من تعب الإنسان والحرص على العمل الصالح ليجمع زاده لئلا يقول وقت السير: ﴿رب ارجعون﴾. فيقال: ﴿كلا﴾.

فلينتبه الغافل من كسل مسيره، فإن الله تعالى يريه في قطع مسافة سفر آيات يرسلها تخويفًا لعباده. لئلا يميلوا عن طريقهم المستقيم، ونهجهم القويم، فمن مالت به راحلته عن طريق الاستقامة فرأى ما يخاف منه، فليرغب إلى الله بالرجوع إليه مما ارتكبه من السبل فيتوب من معصيته ويبكي من قسوته.

ولقد قال بعض السلف: " احذروا دار الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت، فإنهما يفرقان بين المرء وزوجه، والدنيا تفرق بين العبد وربه، فالكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والحازم من بادر بالعمل قبل حلول الأجل، والمسلم من استسلم للقضاء والقدر".

الحقيقة الثالثة: أن الدنيا دار ابتلاء واختبار:

فالدنيا دار امتحان وابتلاء واختبار، وليس فيها لذة على الحقيقة إلا وهي مشوبة بالكدر، فما يظن في الدنيا أنه شراب فهو سراب، وعمارتها وإن حسنت صورتها خراب، وجمعها فهو للذهاب، والعجب كل العجب ممن يده في سلة الأفاعي كيف ينكر اللسع، وأعجب منه من يطلب من المطبوع على الضر النفع. **قال أبو الحسن التهامي ذامًّا للدنيا:**

جبلت على كدر وأنت تريدها ... صفوًا من الآلام والأكدار

ومكلف الأيام ضد طباعها ... متطلّب في الماء جذوة نار

(وفيات الأعيان:٣/٨٣)

لا يكاد الإنسان يفرح حتى يلاحقه ما يحزنه، ولا يفتأ يغتني حتى يدق بابه الفقر، أمنه في الدنيا مشوب بالخوف، وصحته محفوفة بالمرض، آلامه تفوق لذاته، وتعبه فيها يغلب راحته، تلك هي الدنيا، وهذا حال البشر فيها.

قال أبو الفرج ابن الجوزي-رحمه الله-: رأيت جمهور الناس ينزعجون لنزول البلاء، انزعاجًا يزيد على الحد، كأنهم ما علموا أن الدنيا على ذا وضعت. وهل ينتظر الصحيح إلا السقم، والكبير إلا الهرم، والموجود سوى العدم. **كما قال القائل:**

على ذا مضى الناس اجتماع وفرقة ... وميت ومولود وبشر وأحزان

وذلك أن طبيعة الحياة الدنيا، وطبيعة البشر فيها، تجعلان من المستحيل أن يخلو المرء فيها من كوارث تصيبه، وشدائد تحل بساحته، فكم يخفق له عمل أو يخيب له أمل، أو يموت له حبيب، أو يمرض له بدن، أو يفقد منه مال...أو....أو... إلى آخر ما يفيض به نهر الحياة..

فالدنيا جبلت على النقص والبلوى، فإن أضحكت يومًا أبكت أيامًا، وإن سرت شهرًا أحزنت دهرًا.

فالدنيا لا تخلو من بلية ولا تصفو من محنة ورزية.

فما رأينا ولا سمعنا عن أحد لم يصب في هذه الدنيا مصيبة، ولم ينج أحد من الهم والحزن والغم والكرب، لا من الأنبياء والمرسلين ولا من الأولياء والصالحين، ولا من سار على طريقهم واقتفى آثارهم.

فها هو نبي الله نوح عليه السلام قال الله تعالى عنه: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (سورة الأنبياء: ٧٦)

وقال تعالى أيضًا: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (سورة الصافات:٧٦).

وهذا نبي الله أيوب عليه السلام قال تعالى عنه: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٣)

ولقد لبث بلاؤه ثمان عشرة سنة.

ونبي الله يونس قال تعالى عنه: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة الأنبياء: ٨٧،٨٨)

ونبي الله موسى، قال تعالى عنه: ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ (سورة طه: ٤٠)

وقال تعالى عنه وعن أخيه هارون: ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (سورة الصافات: ١١٥).

وكذلك سائر الأنبياء والمرسلين – صلى الله تعالى عليهم جميعًا وعلى خاتمهم نبينا محمد ﷺ –أصيبوا بالهم والكرب من تكذيب الكافرين لهم وإيذائهم، وجاهدوا في الله وصبروا، **قال الله تعالى عنهم:**

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (سورة الأنعام: ٣٤)

وقال تعالى أيضًا: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ (آل عمران: ١٨٤)

فرحم الله من اهتدى بهم واقتفى آثارهم وأحسن اتباع النبي محمد ﷺ وأطاعه كما أمر الله ﷻ فمن رحمة الله تعالى وفضله ومنه أنه قال في كتابه الكريم: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ (سورة النساء: ٦٩، ٧٠)

كما قال أبو الفرج بن الجوزي– رحمه الله–:

ولولا أن الدنيا دار ابتلاء لم تُعْتَوَر فيها الأمراض والأكدار، ولم يضق العيش فيها على الأنبياء والأخيار، فآدم يعاني المحن إلى أن خرج من الدنيا، ونوح بكى ثلاثمائة عام، وإبراهيم يكابد النار وذبح الولد، ويعقوب بكى حتى ذهب بصره، وموسى يقاسي فرعون ويلقى من قومه المحن، وعيسى بن مريم لا مأوى له، إلا البراري في العيش الضنك، ومحمد ﷺ وعليهم أجمعين يصابر الفقر، وقتل عمه حمزة، وهو من أحب أقاربه إليه، ونفور قومه عنه....

قال أبو العتاهية:

من يعش يكبر ومن يكبر يمت ... والمنايا لا تبالي من أتت
نحن في دار بلاء وأذى ... وشقاء وعناء وعنت
منزلٌ ما يثبت المرء به ... سالمًا إلا قليلًا إن ثبت

وصدق الله تعالى حيث قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ (سورة البلد:٤)

قال سعيد بن أبى الحسن – رحمه الله – في تفسير هذه الآية: يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة.

(تفسير ابن جرير:٣٠/١٩٧)

ومن أمثال العرب: من حدث نفسه بطول البقاء فليوطن نفسه على المصائب. **(جنة الرضا:٣/ ٢٩).**

وقال أبو جعفر بن خاتمة – رحمه الله –:

هو الدهر لا يبقي على عائذ به ... فمن شاء عيشًا يصطبر لنوائبه
فمن لم يصب في نفسه فمصابه ... بفقد أمانيه وفقد حبائبه

(جنّة الرضا:٣/٦)

وقال علي بن محمد الدباغ -رحمه الله-: إن طال عمرك فجعت بأحبابك، وإن قصر فجعت بنفسك (المصدر السابق).

وذكر ابن الجوزي في صيد الخاطر وتحت عنوان:" كم من حكمة في الحرمان" فقال-رحمه الله-:

" نزلت بي شدة، وأكثرت من الدعاء أطلب الفرج والراحة، وتأخرت الإجابة فانزعجت النفس وقلقت فصحت بها: ويلك تأملي أمرك، أمملوكة أنت أم حرة مالكة؟ أمدبِّرة أم مُدبَّرة؟ أما علمت أن الدنيا دار ابتلاء واختبار، فإذا طلبت أغراضك ولم تصبري على ما ينافي مرادك فأين الابتلاء؟ وهل الابتلاء إلا الإعراض، وعكس المقاصد. فافهمي معنى التكليف، وقد هان عليك ما عز، وسهل ما استصعب، فلما تدبرت ما قلته، سكنت بعض السكون.

فقلت لها: وعندي جواب ثان؛ وهو أنك تقتضين الحق بأغراضك، ولا تقتضين نفسك بالواجب له وهذا عين الجهل، وإنما كان ينبغي أن يكون الأمر بالعكس؛ لأنك مملوكة والمملوك العاقل يطالب نفسه بأداء حق المالك، ويعلم أنه لا يجب على المالك تبليغه ما يهوى. فسكنت أكثر من ذلك السكون.

فقلت لها: وعندي جواب ثالث؛ وهو أنك استبطأت الإجابة، وأنت سددت طرقها بالمعاصي، فلو قد فتحت الطريق أسرعت، كأنك ما علمت أن سبب الراحة التقوى أو ما سمعت قوله تعالى:

﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (سورة الطلاق:٢،٣)

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾(سورة الطلاق:٤) أو ما فهمت أن العكس بالعكس؟ آه من سكر غفلة صار أقوى من كل سكر في وجه مياه المراد يمنعها من الوصول إلى زرع الأماني. فعرفت النفس أن هذا حق فاطمأنت.

فقلت: وعندي جواب رابع؛ وهو أنك تطلبين ما لا تعلمين عاقبته، وربما كان فيه ضررك. فمثلك كمثل طفل محموم، يطلب الحلوى، والمدبر لك أعلم بالمصالح. وكيف وقد قال تعالى: ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ (البقرة: ٢١٦) فلما بان الصواب للنفس في هذه الأجوبة زادت طمأنينتها

فقلت لها: وعندي جواب خامس؛ وهو أن المطلوب ينقص من أجرك ويحط من مرتبتك، فمنع الحق لك ما هذا سبيله عطاء منه لك. ولو أنك طلبت ما يصلح آخرتك كان أولى لك، فأولى لك أن تفهمي ما قد شرحت. فقالت: لقد سرحت في رياض ما شرحت، فهمت إذ فهمت ". اهـ

فمن يظن أن الدنيا طريق مفروش بالورد، وأرادها خالية من المصاعب والمتاعب والآلام فقد أخطأ في ظنه، وخالف الواقع.

الحقيقة الرابعة: يخبرنا عنها ابن القيم -رحمه الله- كما في عدة الصابرين ص: ٩٠:

فيقول: لابد أن يعلم المرء أن الله سبحانه خلقه لبقاء لا فناء له، ولعز لا ذل معه وأمن لا خوف فيه، وغناء لا فقر معه، ولذة لا ألم معها، وكمال لا نقص فيه، وامتحنه في هذه الدار بالبقاء الذي يسرع إليه بالفناء، والعز الذي يقارنه الذل ويعقبه الذل، والأمن الذي معه الخوف وبعده الخوف.

وكذلك الغناء واللذة والفرح والسرور والنعيم الذي هنا مشوب بضده؛ لأنه يتعقبه ضده وهو سريع الزوال، فغلط أكثر الخلق في هذا المقام إذ طلبوا النعيم والبقاء والعز والملك والجاه في غير محله ففاتهم في محله، وأكثرهم لم يظفر بما طلب من ذلك، والذي ظفر به إنما هو متاع قليل والزوال قريب فإنه سريع الزوال عنه، والرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – إنما جاءوا بالدعوة إلى النعيم المقيم والملك الكبير، فمن أجابهم حصل له ألذ ما في الدنيا وأطيبه، فكان عيشه فيها أطيب من عيش الملك فمن دونهم. اهـ.

فمن صبر على مكاره الدنيا وبلائها عوّضه الله خيرًا منها جنة نعيمها مقيم وملك لا يبلى ولا يزول. فمن صبر على مرارة الدنيا نال حلاوة الآخرة.

وصدق النبي ﷺ حيث قال كما في صحيح مسلم من حديث أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: **" حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات".** (رواه أحمد والترمذي وهو في صحيح الجامع:٣١٤٧)

فصبرًا يا أهل البلاء فغمسة في الجنة تنسي كل شقاء وهم وبلاء، وغمسة في النار عياذًا بالله تنسي كل لذة ونعيم.

أخرج مسلم عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" يؤت بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في جهنم صبغة[1]، ثم يقال: يا ابن آدم، هل رأيت خيرًا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يارب، ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ في الجنة صبغة، فيقال له: يا ابن آدم، هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا والله، ما مر بي بؤسٌ قط، ولا رأيت شدة قط ".**

فتأمل كيف أنست الأول شدة العذاب ما مضى عليه من النعيم في الدنيا، وكيف أن الثاني قد نسي ما مرّ به من شدائد ومصائب لما ذاق طعم الجنة.

فسوف تنسى– أخي المبتلى – كل ما كنت تعانيه من آلام وأسقام إذا دخلت دار السلام.

يقول ابن القيم–رحمه الله– كما في" إغاثة اللهفان:٢/١٧٥": " ومن رحمتِه سبحانه بعباده أن نَغَّصَ عليهم الدُّنيا وكدَّرها، لئلَّا يسكنوا إليها، ولا يطمئنوا إليها، ويرغبوا في النَّعيم المُقيم في دارِه وجواره، فساقهُم إلى ذلك بسياط الابتلاء والامتحان، فمنَعهُم ليُعطيَهُم، وابتلاهُم ليُعافيَهُم، وأماتَهم ليحيِيَهُم. اهـ.

١ـ والصَبغة – بفتح الصاد – أي يغمس غمسة. (شرح صحيح مسلم:١٧/١٥٥)

الحقيقة الخامسة: فليعلم أهل البلاء أن الراحة الحقيقية والنعيم المقيم ليس في هذه الدار إنما هو في جنة العزيز الغفار:

فمن يتأمل في كتاب الله يعلم أن أهل الجنّة كانوا أهل حزن في الدنيا، وكان يصيبهم الوصب والنصب واللغوب، **قال تعالى عنهم:** ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ (سورة فاطر: ٣٤، ٣٥).

كانوا معرضين للهموم والأحزان، فالحزن بسبب نقص الطعام والشراب واللذات وقلة التنعم، ونقص الجمال والأجساد والرزق فهموم الدنيا كثيرة، لذلك أبدلهم الله دار المقامة التي فيها الدوام والبقاء والخلود حيث الصحة التي ليس معها مرض، والشباب الذي لا يتسرب إليه العجز والشيخوخة، والنعيم الذي لا يخالطه بؤس أبدًا.

فقد أخرج الإمام مسلم عن أبي سعيد وأبي هريرة -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: " إذا دخل أهلُ الجنّةِ الجنّة ينادي منادٍ: إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا ".

وأخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " من يدخل الجنّة ينعم، ولا يبأس، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه ".

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، واقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة السجدة: ١٧)".

- **أول زمرة يدخلون الجنّة على صورة القمر ليلة البدر:**

فقد أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " أول زمرة يدخلون الجنّة على صورة القمر ليلة البدر. ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة: لا يبولون ولا يتغوطون، ولا يتفلون، ولا يتمخطون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الأُلُوَّةُ[1] أزواجهم الحور العين، على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا في السماء ".

وفي رواية للبخاري ومسلم: " آنيتهم فيها الذهب، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحُسْنِ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب رجل واحد، يسبحون الله بكرة وعشية ".

١- الأُلُوَّةُ: عود الطيب.

- آخر أهل الجنّة دخولًا الجنة:

أخرج البخاري و مسلم عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" إني لأعلم آخر أهل النار خروجًا منها وآخر أهل الجنّة دخولًا الجنّة: رجل يخرج من النار حبوًا، فيقول الله ﷻ له: اذهب فادخل الجنّة، فيأتيها، فيخيل إليه أنها ملأى، فيرجع، فيقول يارب وجدتها ملأى، فيقول الله ﷻ له: اذهب فادخل الجنّة فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها، أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا، فيقول: أتسخر بي، أو تضحك بي وأنت الملك؟ قال: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه فكان يقول:" ذلك أدنى أهل الجنّة منزلة ".

- أدنى أهل الجنة منزلة:

وأخرج الإمام مسلم عن المغيرة بن شعبة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال:" سأل موسى -عليه السلام- ربه، ما أدنى أهل الجنّة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعد ما أُدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنّة. فيقول: أي رب كيف وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم[1] فيقول له: أترضى أن يكون لك مثل مُلْك مَلِك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب، فيقول: لك ذلك ومثله ومثله ومثله، فيقول في الخامسة: رضيت رب، فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك، ولذت عينك، فيقول: رضيت رب، قال: رب فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت[2]، غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر ".

- خيمة من لؤلؤة مجوفة للمؤمن:

أخرج البخاري و مسلم عن أبي موسى ﷺ أن النبي ﷺ قال:" إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوَّفة طولها في السماء ستون ميلًا، للمؤمن فيها أهلون، يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضها ".

- أفضل نعيم أهل الجنة هو النظر إلى وجه الله الكريم.

فقد أخرج الإمام مسلم عن صهيب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:" إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنّة وتنجّنا من النار. فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم ".

- ثم يحل عليهم الرضوان من الرحمن:

فقد أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:" إن الله ﷻ يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير كله في يديك فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا ".

---

١ - أخذاتهم: حظهم من النعيم والرضوان.
٢ - أردت: اصطفيت واخترت.

فلنصبر على بلاء الدنيا حتى نفوز بهذا النعيم المقيم، جنّة عرضها السموات والأرض بناؤها لبنة من ذهب، ولبنة من فضة وملاطها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم ولا يبأس، ويخلد ولا يموت، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه، فيها غرف يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام وألان الكلام وتابع الصيام وصلى بالليل والناس نيام. **فاللهم ارزقنا الجنة برحمتك يا أرحم الراحمين.....آمين**

وبعد...

فهذا آخر ما تيسَّر جمعه في هذه الرسالة.

وأسأل الله– تعالى– أن يكتب لها القبول، وأن يتقبَّلها منّي بقبول حسن، كما أسأله سبحانه وتعالى أن ينفع بها مؤلفها وقارئها، ومَن أعان على إخراجها ونشرها.....إنه ولي ذلك والقادر عليه.

هذا وما كان فيها من صواب فمن الله وحده، وما كان من سهو أو خطأ أو نسيان فمنِّي ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء، وهذا شأن أي عمل بشري فإنه يعتريه الخطأ والصواب، فإن كان صوابًا فادعُ لي بالقبول والتوفيق، وإن كان ثم خطأ فاستغفر لي:

وإن وجدت العيب فسد الخللا جلّ من لا عيب فيه وعلا

فاللهم اجعل عملي كله صالحًا ولوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه نصيبًا

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا والله – تعالى– أعلى وأعلم.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك